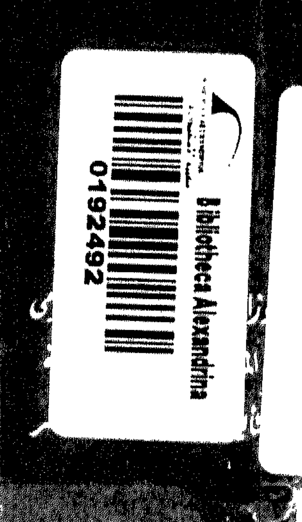
أعلام العرب

٣١

المثنى بن حارثة الشيباني

فارس بني شيبان



أعلام العرب

٣١

المثنى بن حارثة الشيباني

فارس بني شيبان

بقلم

عقيد محمد فرج

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الإهداء

إلى روح أبي

في ذكرى وفاته الثانية والعشرين

مقدمة الكتاب

بقلم الدكتور

محمد عبد القادر حاتم

فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل تطور الأمة العربيــة ، تحتاج أجيالنا الناشئة الى منهج جديد فى الثقافة والعلم ، منهج يقوم على الاستفادة من التراث المشترك للبشرية من ناحية ، وعلى توكيد الذات العربية وتثبيت خصائصها الحضــارية من ناحية أخرى .. وذلك أن أمتنا لن تستطيع أن تمارس تأثيرها العالمى المنشود ، الا اذا استرد شبابنا ايمانه بنفسه .. وجــدد معرفته بتراثه الأصيل .. ومن هنا كان من الضرورى أن تتجــه عناية الكتاب والموجهين الى تلك الصفحات المشرفة من تاريخنا القديم والحديث .. فيقدموها الى الأجيال الناشئة فى اطار العظمة الصادقة التى أحاطت بها والى سيرة الأفذاذ من أبطال الأمة وأعلام تاريخها.. فيحللون جوانبها ويبينون مواضع العظمة فيها حتى يكون ذلك كله زادا حيا .. لشباب الأمة فى سيره على طريق الثورة والتجديد والبنــاء .

والصفحة التى يجلوها اليوم لشباب الأمة العربية **العقيد محمد فرج** صفحة مشرقة عامرة بصور البطولة..ومظاهر العظمة.. ومواضع الاقتداء .. فهى صفحة فيها من عصر النبوة نوره وقدسيته ، وفيها من عصر الصحابة صدقهم وبلاؤهم وكفاحهم المرير فى سبيل الحفاظ على أمانة الله وأمانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها بعد ذلك الشىء الكثير من آداب الاسلام وأخلاق رجاله وبطولات قواده .. وهى ليست صفحة المثنى وحده .. ولكنها صفحة من كتاب الأمة العربية والاسلامية .. جديرة بأن يعيش فيها شباب تلك الأمة بعقله ووجدانه فى هذه المرحلة من تاريخ وطننا .

دكتور
عبد القادر حاتم

مقدمة المؤلف

المثنى بن حارثة الشيبانى — موضوع هـذا الكتاب — شخصية عربية أصيلة ممتازة ، كان له دور كبير فى حياة العرب والاسلام .. دور ملىء بالبطولات ، عامر بالأمجاد ، زاخر بالقومية أصيل فى أحداثه ووقائعه .

والمثنى قائد عربى له تاريخ عسكرى مجيد لم تسلط عليه الأضواء برغم أن بطولاته كانت حديثا على كل لسان وعبقريته لم يختلف فيها مؤرخان .

ولقد كان لقائى مع المثنى فى ١٩٥٠ حين كنت أقوم بدراسات لبعض القادة العرب وكان هو أحدهم ولما أصدرت كتابى « جبابرة حرب » احتل المثنى بابا فى هذا الكتاب الا اننى أحسست أن بابا من صفحات قليلة يتناول حياة المثنى لا يصور أبدا حياة عربية عريقة مجيدة لبطل مجاهد من أبطال التاريخ الاسلامى ولقائد محارب يحتل مكانة مرموقة فى التاريخ العسكرى ، ولهذا قررت أن أعد دراسة متكاملة عن حياة المثنى وأن أنشر هذه الدراسة فى كتاب خاص به .

ومنذ هذا التاريخ وأنا أعيش مع المثنى أتلمس أخباره وأنباء حياته ووقائعه وبطولاته وبذلت فى سبيل ذلك جهـدا أثق كل الثقة بأن القارىء سيشعر به وهو يطالع الكتاب .

وكنت قد تعودت منذ سنوات على أن أنتهى فى شهر رمضان من كل عام هجرى من اعداد كتاب جديد حتى أصبحت متفائلا بهذا الشهر الكريم .. أنتظر أوبته بشوق وحنين ، ولقد أحاطتنى رعاية الله تبارك وتعالى فاستطعت بعد سنوات من الدراسة والبحث والسهر أن أنتهى من كتابة هذا الكتاب واعداده فى رمضان من عام ١٣٨٣ وكم أرجو أن تدوم صلتى بهذا الشهر الفريد فيكون لى معه فى كل عام كتاب جديد .

ولقد تفضل الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والارشاد القومى الذى يقود معركة الثقافة فى بلادنا ويتولى مهمة تحقيق الثورة الثقافية فى عهدنا الثورى بتقديم الكتاب الى القراء فى المنطقة العربية .

وها هو ذا الكتاب بين يدى القراء وغاية ما أرجوه أن أكون قد وفقت فى اعداده بما يهيىء الفائدة المرجوة من اعادة كتابة تاريخنا العربى واحياء تراثنا الاسلامى والله الموفق لما فيه خير البلاد ونفع العباد .

محمد فرج

هاجت لعــروة دار الحى أحــزانا
واستبدلت بعد عبد القيس همذانا
وقد أرانا بها والشــمل مجتمــع
اذ بالنخيــلة قتلى جنــد مهــرانا
أيام سار المثنى بالجنــود لهــم
فقتل القــوم من رجــل وركبانا
ســما لأجنــاد مهــران وشــيعته
حتى أبادهــم مثنى ووحـــــدانا
ما آن رأينا أمــيرا بالعــراق مضى
مثل المثنى الذى من آل شــيبانا
ان المثنى الأمــير القــرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفــانا

« عروة بن زيد الخيل »

الباب الأول

بيئة المثنى
قومه ... أهله ... موطنه

ليس فى العرب أحد أعز دارا ولا
أمنع جارا ولا أكثر حليفا من شيبان

ابن الأثير

ان البيئة التى نشأ فيها المثنى بن حارثة كانت ذات آثار ضخمة كبيرة واسعة عميقة بالنسبة لحياته ونشأته وتكوينه ... فقد أثرت هذه البيئة فى أخلاقه وعاداته وصفاته حتى أصبح صورة لأخلاق هذه البيئة وما تتصف به من مختلف العادات .

ونحن حين نتعرض للبيئة التى عاش فيها المثنى ونشأ بين أجوائها المختلفة وشب بين عادات قومها لابد لنا من أن نناقش أمرين هامين ...

الأول : من هم قومه ؟، وما صفاتهم وعاداتهم ؟، وكيف أثر هؤلاء القوم فيه فجعلوه رجلا ناجحا فى حياته صاحب ذكرى طيبة بعد وفاته .

الثانى : أين عاش قومه ؟

قومه ...

ينتمى المثنى بن حارثة الشيبانى الى بنى شيبان .

وبنو شيبان هم أحد فروع بكر بن وائل الذى ينتهى نسبه فى ربيعة، وعندما تناول المؤرخون الأمة العربية بالحديث جعلوها ثلاث طبقات [1] .

---

(١) يختلف ابن خلدون مع هذا الرأى فيجعل الطبقات الثلاث ...

العرب العاربة .
العرب المستعربة .
العرب التابعة للعرب .

العرب البائدة .
العرب العاربة .
العرب المستعربة [1] .

ومن العرب البائدة .. دولتا عاد الأولى والثانية .. الأولى قامت بين أحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والبحرين وبلاد الشجر ، وكان عاد هو أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده واستطال له الملك وخرج أبناؤه غازين فاتحين وامتد ملكهم حتى حدود الشام والعراق فلما عظم أمرهم طغوا وبغوا وعبدوا الأوثان فبعث الله اليهم رسله فكذبوهم وكان منهم أخوه هود الذى وعظهم فآمن به البعض وهم الخلخان وقومه (وكانت منهم عاد الثانية) والبعض الآخر أبى أن يستجيب الى دعوته فأرسل الله عليهم الريح فقضت عليهم وأنجى الله هودا والذين آمنوا معه .. ومن هؤلاء أيضا ثمود وكانوا يعيشون فى وادى القرى بين الحجاز والشام ، وجاءهم صالح يدعوهم الى عبادة الله ، فمنهم من آمن ومنهم من كذب ... ومنهم أيضا طسم وجديس وكانوا يعيشون باليمامة وثارت الفتنة [2] بين الاثنين حتى خربت اليمامة وأصبحت يبابا الى أن نزل بها بنو حنيفة ...

---

(1) ويزيد الألوسى البغدادى على هذه الطبقات طبقة رابعة هى ... العرب المستعجمة وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المضرى الذى نزل به القرآن .
(كتاب بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ... ج ١) .

(2) يمكن الوقوف على أسباب الفتنة وحوادثها بالرجوع الى ما كتبه الطبرى وغيره من ثقات المؤرخين وعلماء العرب .

ومنهم العمالقة الذين قامت بينهم وبين بنى اسرائيل حروب انتهت باستيلاء بنى اسرائيل على الحجاز فكان لهم يثرب وخيبر ومن بقاياهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع .

أما العرب العاربة .. فهؤلاء يعرفون باسم القحطانيين ... وبنو قحطان عاصروا العرب البائدة ولكنهم عاشوا فى البادية بعيدين عن مظاهر الملك ، وأعظم رجالهم يعرب بن قحطان الذى انتصر على عاد الثانية فى اليمن وعلى العمالقة فى الحجاز وولى أخويه عاد على جبال الشجر وعمان على أرض عمان ، ومن ذريته ابنه يشجب وحفيده عبد شمس الذى كان يسمى سبأ[1] وكان له كثير من الولد أشهرهم حمير [2] وكهلان ، وظل الملك لأبناء حمير يتوارثونه حتى استقر فى الحرث الرائش وبنيه وهم التبابعة [3] .

وتأتى بعد ذلك الطبقة الثالثة من طبقات العرب وهى طبقة العرب المستعربة ... وهم بنو اسماعيل بن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وكان اسماعيل عبرانيا فلما نشأ أولاده بين العرب استعربوا ، ولهذا سموا بالمستعربة ، وقصة نزول اسماعيل بمكة

---

(١) هو صاحب مدينة سبأ وسد مأرب ، وهو أول من توج من ملوك العرب .

(٢) أجمع المؤرخون على أنه كان أجمل أهل زمانه وأفرسهم ، وقيل أنه أول من تتوج بالذهب .

(٣) قيل عن الحرث الرائش أنه راش الناس بالعطاء وأنه عمر فى الملك طويلا وخلفه أبنه ذو النار ، ثم أبنه عمرو ، ثم تتابع الملك حتى ملكته بلقيس التى تنازلت عنه للملك سليمان ، ثم استعاده التبابعة بعد ذلك .

معروفة تناولتها كثير من الكتب ، فقد هاجر والده به مع أمه الى مكة حيث نشأ وتربى وتزوج احدى نساء جرهم فولدت له اثنى عشر ولدا ذكرا ، كان كل واحد منهم أبا لقبيلة ، ثم انقرضوا جميعا ، ولم يبق غير عدنان وبنيه ولهذا تسمى هذه الطبقة بالعدنانية ... وكان العدنانيون يعيشون فى نجد وافترقت عنهم شعوب فى الحجاز وتهامة والعراق والجزيرة ، وكان معد بن عدنان قد تزوج بنت الحارث بن مضاض الجرهمى [1] فولدت له نزارا ، وهذا ولد له أربعة كان منهم مضر وربيعة ... أما مضر فقد كانوا أهل الكثرة من بنى عدنان ، وكانت لهم رئاسة بمكة ، وأما ربيعة فكانت ديارهم ما بين الجزيرة والعراق ... ومن ربيعة جاء أسد ابن ربيعة ومنه جديلة ، ومن جديلة بكر وتغلب ابنا وائل ابن قاسط .. ومن بكر جاء ثعلبة الذى كان له أبناء ثلاثة هم شيبان وقيس وذهل .. وشيبان هو الجد الأكبر لصاحب دراستنا المثنى بن حارثة الشيبانى [2] .

اذن فالمثنى بن حارثة من العرب المستعربة ، وهو فى أصله من العدنانين ، وهؤلاء كما ذكرت المراجع كانوا أهل حل وترحال، أى أنهم كانوا ينتقلون بخيامهم ، لا مدن لهم ولا ملك ، وانما كانت لهم رياسة بدوية وظلوا تابعين لغيرهم ، الى أن نبضت عروق الملك فى مضر وظهرت قريش بمكة .

---

(١) جاء فى بعض الروايات أن معد تزوج بنت أحد أولاد الحارث .

(٢) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعيد بن مرة ابن ذهل بن شيبان .

وكانت لغتهم عربية وعبادتهم الأوثان يتخذونها من الأحجار والأصل فى ذلك أنهم اعتادوا فى أسفارهم حمل شيء من أحجار الحرم يطوفون به اذا أحلوا تبركا بالبيت وأدى بهم ذلك الى عبادة الأحجار [1] .

الحروب بين بكر وتغلب وتميم ..

ولا يفوتنا أن نذكر فى معرض الحديث عن البيئة التى نشأ فيها المثنى أن خلافا وقع بين بكر وتغلب ابنى وائل ، وقامت بينهما الحروب والوقائع حتى كان يوم قضة ، وكانت الدائرة لبكر على تغلب فتفرق هؤلاء على حين انتشرت بكر باليمامة فيما بينها وبين البحرين الى أطراف سواد العراق وناحية الأبلة الى هيت ...

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا أن بكر بن وائل — التى يمثل المثنى بن حارثة أحد فروعها — كانت تجاور قبيلة تميم من مضر ، وكثر النزاع بينهما ، وقامت الحروب وتوالت الغزوات ، ويقول المؤرخون ان بكرا كانت هى المهاجمة دائما لكثرة ما كان يلحق بمنازلها من جدب ، لأن أرض تميم كانت تفوقها خصبا ، ولقد اشتعلت الحرب بين القبيلتين اثنتى عشرة مرة فازت تميم بست

---

(١) يلاحظ أن بعض أسمائهم كانت تضاف الى آلهتهم مثل عبد مناف أو كانت أسماء للحيوانات التى تقع أبصارهم عليها كأسد وثعلبة وقيل لهم « ألم تسموا أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وتسموا عبيدكم بأحسن الأسماء ؟ » ، « فقالوا « انما نسمى أبناءنا لأعدائنا ونسمى عبيدنا لأنفسنا » .

منها ، وبكر بست ، ففازت تميم فى يوم النباج وثيتل[1] ، ويوم ذى طلوح [2] ، ويوم جدود [3] ، ويوم الأياد ، ويوم الغبيط ، ويوم شقيفة ، وفازت بكر بيـوم فلج ويوم الوقيـظ ويوم الزويرين[4] ، ويوم نعـف قشـاوة ، ويوم مبـايض ، ويوم الشيطين [5] .

رجالات بكر ...

وكما كانت لبكر أيام جليلة فى تاريخ العرب فقد ظهر فيها رجال كان لهم مجد كبير وتاريخ مجيد ، ومن هؤلاء مثلا هانىء ابن قبيصة صاحب وقعة ذى قار ، وبسطام بن قيس فارس بنى شيبان صاحب القول المشهور « قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذى لا يزول ومغرس عزها الذى لا يحول لأنا أدركهم للثأر

---

(١) ثيتل ماء على عشر مراحل من البصرة والنباج موضع قريب منها .

(٢) موضع قريب من الكوفة .

(٣) موضع فى بلاد بنى تميم بقرب حمراء بنى يربوع به ماء يقال له الـكلاب وقعت فيه معركتان ولهذا يسمى البعض يوم جدود بيوم الكلاب الأول .

(٤) الزويران بعيران .

(٥) وقع هـذا القتال فى أيام النبى قبل الهجرة وسببه أن الشيطين بلد مخصب لبكر بن وائل ، فلما ظهر الاسلام فى نجد سـارت بكر الى السواد ولحقهم الوباء الذى انتشر أيام كسرى شيرويه فعادوا هاربين ونزلوا لعلع وهى مجدبة وبلغ خبر الخصب الى بكر فأجتمع رجالهـا وقالوا « نغير على تميم فان فى دين ابن عبد المطلب من قتل نفسا قتل بها فنغير هذه الغارة ثم نسلم بعدها » وأرتحلوا من لعلع وأغاروا على المكان وانهزمت تميم .

وأضربهم للملك الجبار وأقولهم للحق وألدهم للخصم » ، ومنهم مرة بن ذهل بن شيبان وابنه جساس[1] وغيرهم وغـيرهم من الرجال الأبطال الكماة الذين دحروا الفرس وفتحوا العـراق وأفزعوا الأكاسرة .وثلوا عروشهم وحطموا تيجانهـم وزعزعوا ايوانهـم .

ونحن نسوق الحوار التالى الذى دار فى وجود معاوية ابن أبى سفيان بين رجلين أحدهما عامرى [2] ، وثانيهما من شيبان لنؤكد بهذا الحوار كل وصف أردنا أن نلحقه برجال بنى شيبان..

العامرى : أنا أعد لك عشرة من بنى عامر فعد لى عشرة من بنى شيبان .. خذ عامر بن مالك ملاعب الأسنة[3]، والطفيل بن مالك قائد هوازن وفارس قرزل[4] ، ومعاوية ابن مالك معوز الحكماء ، وربيعة ابن مالك ، فارس ذى علق[5] وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ،وعتبة بن سنان ، ويزيد ابن

---

(١) جساس هو قاتل كليب الذى نتجت عن قتله الحرب بين بكر وتغلب فدامت حربا سجالا اربعين عاما .

(٢) عامر أفخر هوازن .

(٣) هو عامر بن مالك بن جعفر ويكنى أبا براء ولقب ملاعب الأسنة لقول أوس ابن حجر فيه

يلاعب أطراف الأسـنة عامر   فراح له حظ الكتائب أجمع

(٤) هو سيد بنى عامر فى الجاهلية وقرزل هو فرسه الذى اشتهر به .

(٥) ذى علق يوم من أيام عامر بن صعصعة وبنى أسد .

الصعق[1] ، وأربد بن قيس ، وعوف بن الأحوص.

الشيباني : خذ قيس بن مسعود رهينة بكر بن وائل ، وهانيء بن قبيصة ، وقبيصة بن مسعود ، ومفروق ابن عمران ، وسنان بن مفروق ، والأصم عمرو ابن قيس ، وعمران بن مرة ، وعوف بن النعمان، والأسود بن شريك ، وبسطام بن قيس .

معاوية : هذان رجلان من غير قومكما عندى يحكمان بينكما ... عدى بن حاتم الطائى وشريك ابن الأعور الحارثى ... (للشيبانى) من تعبىء لعامر بن مالك .

الشيبانى : أصم بن أبى ربيعة الذى قتل فى تميم مائة رجل على دم .

الرجلان : الأصم يرجح .

معاوية : فمن تعبىء لعامر بن الطفيل .

الشيبانى : الحوفزان بن شريك [2] .

الرجلان : يرجح الحوفزان .

معاوية : فمن تعبىء لعلقمة بن علاثة .

الشيبانى : بسطام بن قيس .

---

(١) سمى بالصعق لأن بنى تميم ضربوه على رأسه فأدمته فكان اذا سمع الصوت الشديد صعق وذهب عقله.

(٢) الحوفزان هو الحارث بن شريك وكان رئيسا لبنى شيبان فى يوم جدود .

الرجلان : يرجح بسطام .
معاوية : فمن تعبىء لعتبة بن سنان .
الشيبانى : مفروق بن عمران .
الرجلان : يرجح مفروق .
معاوية : فمن تعبىء للطفيل بن مالك .
الشيبانى : عمران بن مرة .
الرجلان : يرجح عمران .
معاوية : ومن تعبىء لمعاوية بن مالك .
الشيبانى : عوف بن النعمان .
الرجلان : يرجح عوف .
معاوية : فمن تعبىء لعوف بن الأحوص .
الشيبانى : قبيصة بن مسعود .
الرجلان : يرجح قبيصة .
معاوية : فمن تعبىء لربيعة بن مالك .
الشيبانى : هانىء بن قبيصة .
الرجلان : يرجح هانىء .
معاوية : فمن تعبىء ليزيد بن الصعق .
الشيبانى : سنان بن مفروق .
الرجلان : يرجح سنان .
معاوية : فمن تعبىء لاربد بن قيس .
الشيبانى : الأسود بن شريك .
الرجلان : يرجح الأسود .

وهكذا رجح الرجلان الحكمان — وهما محايدان — كل رجال بنى شيبان حتى أنهما قالا لمعاوية « شيبان أكرم الحيين » فرد عليهما معاوية قائلا « وذاك قولى » .

تأثر المثنى بقومه ..

ان هذه الصورة لما كانت عليه بكر بن وائل ولما كان عليه رجال بنى شيبان تبرز لنا حقيقة البيئة التى عاش فيها المثنى وترعرع بين رجالها ، فقد كان لهذه البيئة ولهؤلاء الرجال الأثر الفعال فيه ... فى انماء روحه ، ونشوئه على الايمان بالمبدأ ، والتصلب بالعقيدة ، والجود بالنفس ، والصدق ، والعزيمة ، والصبر ، والجلد والتحمل ، والشجاعة ، والاقدام ، والقوة ،والتفنن بضروب الفروسية ، والاستماتة فى الحرب ... هذه الصفات احس بها الكثيرون من بنى شيبان ولمسوها بصورة واضحة فى المثنى فجعلوا منه سيدا لهم والتفوا من حوله وأصبحوا فى اشارة بنانه ، فذفوا بأنفسهم فى المهالك من ورائه فكتبوا لأنفسهم ولزعيمهم وقائدهم المثنى أروع صفحات المجد والبطولة فى التاريخ .

أين عاش بنو شيبان ؟ ..

قلنا ان بنى شيبان يرجع أصلهم الى ربيعة ... وربيعة كانت أصلا تسكن فى تهامة ثم قامت الفتن بين قبائلها ودارت بينها حروب ووقائع فنزل بنو عبد القيس البحرين وكان بها آياد فأجبروهم على الجلاء ، وغلبت عبد القيس على البحرين فاقتسموها بين

قبائلهم وهى كثيرة على حين نزل آياد فى سواد العراق[1] . ولما تغلبت بكر على تغلب فى يوم قضــة تفرقت تغلب فى البــلاد ، وانتشرت بكر بن وائل فى اليمامة فيما بينها وبين البحــرين الى أطراف سواد العراق ومناظرها وناحية الأبلة الى هيت ، وحدد الهمدانى ديارهم فقال انها تبدأ من اليمامة الى البحــرين الى سيف [2] كاظمة الى البحر فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت [3].

فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، عاش بنو شيبان وكانت هذه المنطقة قريبة من أرض الفــرس الذين أقاموا الحــاميات للمحافظة على بلادهم ودرء الأخطار التى قد تثيرها القبائل العربية ضدهم.. وأكد أكثر من مؤرخ أن سلطان فارس كان أكثر وضوحا فى البحرين وعمان ، وأنه كان من أبناء فارس عدد عظيم استوطن البحرين وعمان ، وعلت كلمته بين أهليها ، وكانت فارس تمد ابناءها هؤلاء بنفوذها وبقواتها كلما خشيت ثورة العرب عليها أو محاولة العرب القضاء على سلطانها فى ربوعهم .. وكثيرا ما وقع الصدام بين الطرفين .. بين بنى شيبان وبين الفرس .. ومن خلال حوادث الصدام المتكرر أدرك المثنى قوة أهله وجاه قومه وعظمة رجال بنى شيبان ، لقد أصبحوا أصحاب السلطة والجاه فى سواد العراق حتى ان ابن الأثير ذكر أن الاسلام جاء « وليس فى العرب أعز دارا ولا أمنع جارا ولا أكثر حليفا من شيبان » .

---

(١) صفة الجزيرة العربية للهمدانى ص ١٧١/١٧٢ .

(٢) أى شاطىء .

(٣) المرجع السابق .

واقعة ذى قار ..

ويسجل التاريخ لبنى شيبان موقفهم التاريخى فى موقعة ذى قار التى دارت رحاها ضد الفرس ، فقد زلزلت سيوف بنى شيبان ورماحها تاج كسرى وقضى رجال بنى شيبان وأبطالهم على جموع الفرس حتى ان الرسول الكريم قال لأصحابه خلال حديث له عن ذى قار « ان هذا لأول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا » .

ويرجع سبب هذه الموقعة الى أن كسرى غضب على النعمان ابن المنذر ملك الحيرة لأنه قتل عدى بن زيد العبادى الذى كان يعمل كاتبا مترجما فى بلاطه ، وسعى كسرى الى الايقاع به ، فهرب النعمان الى بنى شيبان ، فأجاره هانىء بن قبيصة بن هانىء ابن مسعود وقال له « لقد لزمنى ذمامك وانى مانعك مما أمنع منه نفسى وأهلى » ، وبعث كسرى بالأمان الى النعمان فذهب اليه ، ولكنه غدر به وخان عهد الأمان له وألقى به بين أرجل الفيلة فرفسته حتى مات ، ثم بعث كسرى الى هانىء يطلب منه أن يسلمه ودائع النعمان التى كان قد احتفظ بها عنده عندما لجأ اليه فأبى هانىء ، وأقسم كسرى بالنار أن يهلك بنى بكر وأحلافهم ، وأثار هذا القسم مشاعر العرب ، فاجتمعوا فى ذى قار وتولى بنو شيبان القيادة فكان هانىء بن قبيصة الشيبانى فى القلب ، وحنظلة بن ثعلبة ويزيد بن مسهر الشيبانى فى الجناحين ، وبدأ القتال وصاح حنظلة فى قومه « يا معشر بكر ان النشاب الذى مع هؤلاء الأعاجم تفرقكم فعاجلوهم وابدءوا بالشدة » وخاطب هانىء قومه بقوله

« يا قوم .. هالك معذور خير من ناج فرور ، ان الجزع لا يرد القدر وان الصبر من أسباب الظفر .. المنية خير من الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، فالجد الجد فما من الموت بد » .

ودار القتال بين الطرفين عنيفا قويا لا رحمة فيه .. واتخذت بكر خطة جريئة .. فقطعوا أحزمة رواحل نسائهم حتى يثبتوا دفاعا عن النسوة وانخذل الفرس وانهزموا وفروا .. وأصبح هذا اللقاء من أعظم أيام العرب وتغنى به شعراؤهم .

أخـــواه ...

ونحن اذا انتقلنا من هذا المجال الواسع الكبير الى المجال الأصغر الذى عاش فيه المثنى ونعنى به أسرته ، نجد أنه كان له من أبيه حارثة شقيقان هما المعنى ومسعود ، والاخـــوان نشآ مع المثنى ، وأحاطا به ووقفا الى جانبه فى كل أعماله ، وأخذا بنصيب كبير من المعارك التى خاضها وشاركاه فى جهاده الطويل .

كان المعنى ساعده الأيمن فى القتال ، ولمس المثنى شجاعته وبسالته فجعل منه قائدا للخيالة [1] ، شهد معــه جميع معاركه وخاضها الى جانبه ، ومن أشهر عملياته استيلاؤه على حصن المرآة وهو حصن قرب البصرة كان لامرأة تدعى كامورزاد ويقــول البلازرى « انها سميت المرأة لأن أبا موسى الأشعرى نزل بها

(١) كان يطلق عليهــا اسم المجردة وهى الـكتيبة من الخيالة التى لا مشاة معها .

فزودته خبيصا فجعل يقول » أطعمونا من خبيص المرأة [1] » ...
لقد حاصر المعنى الحصن واستطاع أن يقتحمه وأن يجبر صاحبته على التسليم .

وكذلك كان مسعود ... جعله المثنى قائدا للمشاة وأسهم فى معظم المعارك وأبلى بلاء حسنا فى واقعة الجسر واستمات فى القتال حتى جرح جرحا بليغا ولم يشأ أن ينتظر حتى يندمل جرحه وانما خرج وهو جريح ليسهم فى واقعة البويب ، وجالد فيها وبذل من الجهد ما يذكر له بالفخر والمجد ... وفى هذه الموقعة استشهد فى سبيل الدفاع عن الاسلام ومن أجل عزة العرب ، ورثاه المثنى رثاء رائعا حين قال فيه وفى أصحابه الذين استشهدوا معه « والله انه ليهون وجدى أن صبروا وشهدوا البويب ولم ينكلوا » .

خاله ...

ومن بين أهل المثنى يبزغ اسم عمران بن مرة وهو خال المثنى وأحد زعماء بنى شيبان كان موضع فخرهم لبطولته وبسالته وعلو مكانته ورفيع منزلته ، حتى أن أعشى همدان الشاعر العربى المشهور قال عنه انه « ساد فى الجاهلية وساد فى الاسلام » ...

كان عمران هذا ذا فضل كبير على المثنى فقد رأى فيه المثنى رجل حرب يحتذى وصاحب بطولة يقتدى .

---

(١) يذهب البعض الى انها كانت تلقب بالمرأة قبل أن ينعتها أبو موسى بذلك ، ولعله قد كان لها حصن ولزوجها حصن ، وأريد التفريق بين الحصنين فقال الناس حصن المراة وحصن الرجل .

زوجـــه ...

ولابد لنا من أن نسلط الأضواء على امرأة مجاهدة باسلة فاضلة كان لها أثر كبير فى نفس المثنى دفعته بشجاعة الى القتال وهونت أمام ناظريه المصاعب والأهوال وشهدت معـــه معاركه ونعنى بها سلمى بنت حفصة التيمية زوج المثنى وشريكة حياته ... ولقد قيل انها هاجرت معه الى حيث كان الرسول الكريم صلوات الله عليه فأعلنت اسلامها .. ويذهب المؤرخون الى أنها شاركت زوجها فى حروب الردة وفى حروب العـــراق وعاشت معه حياته الحربية وذاقت مرها وأهوالها حتى أنها بعد أن مات عنها المثنى تزوجت من بعده سعد بن أبى وقاص ولم تهجر أرض المعركة وانما عاشت فيها تؤدى دورها فى الدفاع عن الاسلام فشهدت مع سعد معركة القادسية .

ولقـــد كانت المرأة تذكر للمثنى بطولته وشجاعته وقد روى أنه فى خلال معركة القادسية أصيب سعد بمرض منعه من الركوب ولما اشتد القتال تذكرت سلمى ما كان لزوجها الأول المثنى ابن حارثة من مواقف فى مثل هذه الأيام وصـــاحت « وامثناه ... ولا مثنى اليوم للخيل » فلطمها سعد وقال لها « ويلك أين المثنى من هذه الكتيبة التى تدور عليها الرحى ؟ » ، فأشاحت بوجهها وقالت « أغيرة وجبنا » فقال لها « والله ما يعذرنى أحد اذا لم تعذرينى وأنت تريد ما بى » ، وعرف النـــاس ما دار بين سعد وسلمى ، فأكبروا البدوية الجريئة ، ولم يبق شاعر الا اعتد بها .

وكان لها فى القادسية موقف آخر يذكر لها بالفخر فقد كان

ضمن جنود زوجها أبو محجن الثقفى وهو فارس مشهور أولع بالخمر فى الجاهلية حتى أنه قال ...

اذا مت فادفنى الى جنب كرمة
تروّى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننّى فى الفلاة لأننى
أخاف اذا ما مت ألا أذوقها

فلما جاء الاسلام نزل على حكمه وامتنع عن الخمر الا أنه ضعف أمام اغرائها فكان يحتسى منها ما يبرد غليله ، وعلم بذلك عمر فنفاه الى القادسية حيث كان سعد بن أبى وقاص فأمر سعد بسجنه[1] ... وحدث أن دارت معركة القادسية وهو فى سجنه فسمع صليل السيوف وضجيج المعركة وصهيل الجياد فهاجت نفسه الى الجهاد وأخذ يردد :

---

(١) علل المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل حبس أبى محجن بأن سعد بن أبى وقاص مرض عند بداية المعركة وظل مكبا على وجهه فى صدره وسادة يعتمد عليها ويشرف على الناس من القصر يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه وحجزه المرض عن كل حركة ، الا أن بعض المسلمين برموا به وتندروا بمرضه حتى رددوا ...
نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيمٌ
وبلغ سعدا هذا القول فطلب من جنده حمله الى حيث الجند وقال لهم « لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم » ، فرأى جنده ما به من الوجع فعذروه ، الا أن سعدا أمر بحبس بعض رجاله وقيدهم فى القصر ومن بينهم أبو محجن الثقفى ...
(كتاب الفاروق عمر ج ١ ص ١٦٧) =

كفى حزنا أن ترتوى الخيـل بالقنا
وأترك مشـدودا على وثاقيـا
اذا قمت عنّـانى الحديد وأغلقت
مصاريع دونى قد تصم المنـاديا
وقد كنت ذا مال كثير واخـوة
فقد تركونى واحدا لا أخـا ليـا
وقد شـف جسمى أننى كل شارق
أعالج كبـلا مصمتا قد برانيـا
فلله درى يوم أترك موثقـا
ويذهـل عنى أسرتى ورجاليـا
حبسنا عن الحرب العوان وقد بدت
واعمـال غيرى يوم ذاك العواليـا
فلله عهـد لا أخيس بعهـده
اذا فرجت الا أزور الخواليـا [1]

ووصل صوته وهو يترنم بهذه الأبيات الى سلمى ثم أبصرته مقدما عليها زاحفا طالبا منها أن تطلق سراحه وأن تفك قيده اذ قد

= ولكن أكثر من رواية تؤاكد أن سعدا سجن أبا محجن لشربه الخمر حتى أن سلمى سألته فى أى شىء حبسه سعد فقال لهـا «ما حبسنى فى حرام أكلته ولا شربته ولكننى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا أمرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى يبعثه على شفتى أحيانا فيسىء لذلك ثنائى ، لذلك حبسنى أن قلت (وذكر البيتين الموضحين فى الحديث) ، فتوسطت له عند سعد فقال له .. « اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله » .

(١) فى رواية أخرى « لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا » .

ازداد حنينه الى المعركة ، واشتدت به الرغبة الى خوض غمارها والأخذ بنصيبه منها وقال لها » أناشدك الله أن تخليني ، ولك لله على عهد ان سلمت أن أجىء فأضع رجلى فى القيد ، وان قتلت استرحتم منى » ، وأحست المرأة بصدق قوله فاستجابت لدعوته قائلة له « انى استخرت الله ورضيت بعهدك » ، ثم أطلقت وثاقة وأعطته سلاحه وقدمت له فرس زوجها سعد [1] ، فوثب عليها وانطلق الى الميدان حتى أتى الناس وخاض غمار المعركة بعـــزم وقوة وشجاعة لفتت اليه الأنظار فكان يقصف الأعداء بسيفه قصفا منكرا ، ولا يلتقى برجل من الأعداء الا قتله ولا يحمل على ناحية الا هزمت حتى قال النـــاس « ما هذا والله الا ملك » ، وحتى أن سعدا — وكان يشرف على المعركة من مكان مرتفع — قال « الضبر[2] ضبر البلقاء ، والطفر طفر أبىمحجن ، وأبو محجن فى القيد » ، ولما انتهت المعركة وهزم الفرس رجع أبو محجن الى سلمى فوضعته فى القيـــد ، وعاد سعد فسألته زوجته كيف كان قتالهم فأجابها « لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلا على فرس أبلق لولا أنى تركت أبا محجن فى القيد لظننت أنها بعض شمائل أبى محجن » ، فقالت له « والله انه لأبو محجن » ، ثم روت له ما حدث

---

(١) كانت تسمى البلقاء .
(٢) الضبر أى الركض .

فأسرع سعد الى حيث أبو محجن وفك قيده وأطلق سراحه قائلا « والله لا أجد اليوم رجلا أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم[1] ».

يوم الفرات ..

فى هذه البيئة عاش المثنى واستطاع أن يسجل لنفسه فى التاريخ العربى صفحات بطولية مجيدة ، ونحن لا نكون مبالغين فى قولنا هذا اذا عرفنا أن اسم المثنى ارتبط بيوم هام من أيام العرب هو يوم الفرات ، فالمعروف أن العرب كانوا فى جاهليتهم قد اتخذوا من الحوادث الجسيمة تاريخا لهم كعام الفيل وكحرب البسوس وكيوم داحس والغبراء وغيرها من الأيام الشهيرة التى كان العرب يفخرون بها ويتغنون بها فى شعرهم ، ولقد شاء المثنى أن يذكره العرب فى جاهليتهم بحادث هام يرتبط بحياته ارتباطا وثيقا ، وجاءته الفرصة لتحقيق رغبته وأصبح يوم الفرات حدثا فى تاريخ العرب يرتبط باسم المثنى ، ففى هذا اليوم أغار — وكان قد تولى امار عشيرته وأصبح زعيمها بيده مقاليد السلم والحرب — على بنى تغلب قرب الفرات وكان يمتطى صهوة فرسه الدليكة التى طار صيتها وورد ذكرها فى كثير من الشعر .. وكتب

(١) اختلفت الآراء فى هذه الرواية .. قال البلاذرى أن زبراء أم ولد سعد هى التى أطلقت أبا محجن .. ولم يذكر ابن كثير فى روايته اسم سلمى ... أما الطبرى فيروى الرواية كما رويناها ويؤكد أن سلمى هى التى أطلقت أبا محجن ، ويميل الكثيرون الى الأخذ بروايته وقد ذكرها كثير من الكتاب نقلا عنه مما يؤكد حدوث الرواية كما ذكرناها .

المثنى لنفسه فى المعركة تاريخه الذى كان يرجوه ، فقد وفق فى قتاله وظفر بأعدائه وانتصر عليهم وقتل رجالهم وأغرق كثيرين منهم فى الفرات ، وساق أنعامهم وأخذ أموالهم فقسمها بين أصحابه وكان انتصاره فى يوم الفرات أحدوثة الزمان حتى أصبح يوم الفرات حدثا تاريخيا يذكر به العرب أهم أحداثهم وتواريخهم ، وقد تغنى به شاعر بنى شيبان فقال :

ومنا الذى غشى الدليكة سـيفه
على حين أن أعيا الفـرات كتائبـه

الباب الثانى

بنو شيبان
بين الاسلام ... والردة

« اذا جاءكم أمرائى فأطيعوهم وانصروهم وأعينوهم على أمـر الله وفى سـبيله فانه من يعمـل منـكم عملا صالحا فلن يضـل له عنـد الله وعنـدى » .

رسول الله

اسلام بنى شيبان

عاش بنو شيبان فى البحرين .

وذكر البلاذرى [1] أن أرض البحرين كانت من مملكة الفرس، وكان بها خلق كثير من العرب من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم ، وكانوا مقيمين فى باديتها .

وكان على العرب بها من قبل الفرس على عهد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، منذر بن ساوى وهو أحد أبناء عبد الله ابن زيد بن عبد الله [2] .

وتناول الكتاب والمؤرخون ، قصة اسلام بنى شيبان فى كتبهم وتلاحظ من خلال دراسة كتبهم أنهم اتجهوا اتجاهين فى روايتهم لاسلام بنى شيبان ...

وقد رأينا أنه من الأوفق أن نعرض هذين الاتجاهين ...

الاتجاه الأول ...

حينما وصل الجيش الاسلامى بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حدود مكة ، وهنت روح الحرب عند قريش وتملك أهليها الخوف ، وأدركوا أنه لا قبل لهم بمحمد ، وأحسوا بأن اللقاء القادم مع جيوشه لقاء خاسر بالنسبة لهم فهو سيدخل مكة

---

(١) فتوح البلدان .

(٢) عبد الله بن زيد الأسبذى نسبة الى قرية بهجر يقال لها الأسبذ ، ويقال أنه نسب الى الأسبذيين ، وهم قوم بالبحرين كانوا يعبدون الخيل .

بجموعة التى زادت على عشرة آلاف شاءت قريش أم رفضت ... سلمت أم قاتلت ... واستسلمت مكة ودخلها الجيش الاسلامى منتصرا ، ثم دارت بعض الغزوات المحمدية بعد مكة كغزوة حنين ضد هوازن ، وغزوة الطائف ضد مالك بن عوف ، وغزوة تبوك ضد الروم ، وبهذه الغزوات انتهت حروب الرسول وتمت كلمة الله فى شبه الجزيرة وأقبل سائر أهلها يقدمون الطاعة ويعلنون دخولهم فى الاسلام وايمانهم بالدين الجديد وأخذت القبائل العربية تفد الى الرسول ، ويقول فى هذا ابن هشام « لما فتح رسول الله مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت اليه وفود العرب من كل وجه » وعن ابن اسحاق انه لما افتتحت مكة ودانت للرسول قريش عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته فدخلوا فى دين الله كما قال الله عز وجل أفواجا يضربون اليه من كل وجه ، ويقول الله تعالى لنبيه : « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا [1] » .

وأصبح العام التاسع الهجرى عام خير ويمن وبركة على الجزيرة العربية ففيه جاءت جميع القبائل وتوافد أهل المدن وأظهروا اسلامهم ، وسمى هذا العام بعام الوفود لكثرة الوفود التى جاءت الى الرسول تعلن ايمانها ودخولها فى الدين الجديد .

وشيبان كانت احدى القبائل العربية التى سمعت بالدين الجديد منذ ظهوره وتتبعت أخباره منذ بدء الدعوة اليه وكان

(١) سورة النصر ١/٣ .

رجالها يستعرضون فى مخيلاتهم أوصاف الرسول وتدور على ألسنتهم ويتجاذبون فى أنديتهم أخبـاره ويذكرون انتصـاراته المتوالية فى غزواته وسراياه ، وكانت قلوبهم ترتاح ويقوى اعتقادها ويزيد ايمانها ، الا أن شيبان وغيرها من القبائل العربية المنتشرة فى أرجاء الجزيرة كانت تتردد فى اعلان اسلامها فى انتظار موقف قريش ، لأن قريشا كانت لها مكانة مرموقة بين العرب ، هذا فوق أن أهلها كانوا أهل الحرم فلما دخل محمد بقواته وأتباعه مكة ، وأعلنت قريش ايمانها بالدين الجديد ودخلت الاسـلام وبايعت محمدا رسولا ونبيا ، كانت الرغبة عند شيبان وعند غيرها من القبائل التى تتوق الى الدخول فى الاسلام قد وصلت الى الحد الذى جعلها تنتظر المناسبة التى يستغلونها للتقرب الى محمد عليه السلام لاعلان اسلامهم .

وفى عام الوفود ، أى فى العام التاسع الهجرى .. وفد الى الرسول وفد بنى شيبان ، وأسلمت شيبان فى هذا العام ، فقد خفق قلبها بالاسلام ، وواتتها الفرصة التى كانت تنتظرها منـذ زمن ، فسيرت وفدها من ربيعة وشيبان الى مكة فأسلموا وأقرهم الرسول على ما بأيديهم ولم يؤاخذهم على ما فعلوه قبل اعتناق الدين الحنيف .

ويقول المؤرخون الذين اتجهوا هذا الاتجاه أن المثنى ابن حارثة الشيبانى كان واحدا من أفراد هذا الوفد ... هو اذن كان من الأولين الذين آمنوا بهذا الدين والذين انتظروا الفرصـة المواتية للدخول فيه ... هو اذن قد دخل الاسلام عن ايمان وثقة .

وذكر بعض المؤرخين أن سلمى بنت حفصة زوج المثنى كانت معه حين قدم على الرسول وهى بذلك تكون صحابية .

وتقول المراجع التى تؤيد هـذا الاتجاه انه بعـد أن أعلن بنو شيبان اسلامهم بعث الرسول اليهم العلاء بن الحضرمى ليتولى شـئون الدين عندهم ، ويعلمهم مبادئه وأصوله ويفقههم فيه ويؤمهم فى صلاتهم ويقضى بينهم بما يقضى به الدين .

الاتجاه الثانى ...

تقول المراجع التى اتجه أصـحابها اتجاها يخالف الاتجـاه الأول أن الرسول بعث فى العـام الثامن الهجرى العـلاء ابن الحضرمى [١] الى أهل البحرين يدعوهم الى الاسلام [٢] أو الى دفع الجزية ، وأن العلاء حين قدم الى البحرين وأوضح لأهلها مهمته أسلم الكثيرون الا المجوس واليهود الذين قبلوا دفع الجزية .

ذكر البلاذرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث بالعلاء ابن الحضرمى الى البحرين فى العام الثامن الهجرى [٣] ليدعو

---

(١) اسمه عبد الله بن عماد الخزرجى ، وهو من أصل يمنى ، أسلم منذ زمن مبكر ، وأعجب به الرسول لما عرف عنه من حسن الخلق والاقدام والفطنة ، والشجاعة وولاه الرسول قيادة سرية كان خالد بن الوليد أحد جنودها .

(٢) يرى هذا الرأى المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، فقد جاء فى كتابه الصديق أبو بكر « كان ملك هذه الأنحاء المنذر بن ساوى العبدى نصرانيا دان بالاسلام حين دعاه العلاء بن الحضرمى رسول رسول الله الى البحرين فى السنة التاسعة من الهجرة » .

(٣) جاء فى بعض المراجع ، أن الرسول وجـه العلاء فى العام السادس الهجرى حين وجه رسله الى الملوك يدعوهم الى الاسلام .

أهلها الى الاسلام أو الجزية ، وكتب معه كتابين أحدهما الى المنذر بن ساوى ، والآخر الى مرزبان هجر ... جاء فى كتاب الرسول الى المنذر « سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد ، فانى أدعوك الى الاسلام ... أسلم تسلم يجعل الله لك ما تحب ، واعلم أن دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر » .

فلما تسلما كتابى الرسول أسلما وأسلم معهما جميع العرب فى المنطقة كما أسلم بعض العجم ، وكتب المنذر الى رسول الله يقول « أما بعد فانى قد قرأت كتابك على أهل البحرين ، منهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كره ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث فى ذلك أمرك » ، فرد عليه الرسول بكتاب قال فيه « أما بعد فانى أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح نفسه ، وانه من يطع رسلى ، ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وأن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وأنى قد شفعت فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » .

ثم بعث الرسول اليه مرة أخرى بكتاب آخر قال فيه « الى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد فان كتابك جاءنى وسمعت ما فيه فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى ذلك فعليه الجزية » .

أما المجوس واليهود والنصارى فانهم صالحوا العلاء وكتبوا بينهم وبينه عهدا جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح

عليه العلاء بن الحضرمى أهل البحرين .. صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر فمن لم يف بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .. وحدد العهد جزية الرأس بمقدار دينار عن كل حالم ... وجاء فى بعض الروايات أن الرسول كتب الى مجوس هجر يدعوهم الى الاسلام ووعدهم ان أسلموا أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فان أبوا فعليهم الجزية من غير أكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم .

وعن ابن عباس كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهل البحرين حين بعث اليهم بالعلاء بن الحضرمى « أما بعد فانكم اذا أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة ونصحتم الله ورسوله وآتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب ، ولم تمجسوا أولادكم فلكم ما أسلمتم عليه ، غير أن بيت النار لله ورسوله وان أبيتم فعليكم الجزية .

وقال العلاء بن الحضرمى فى حديث له « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البحرين وكنت آتى الحائط بين الاخوة قد أسلم بعضهم فآخذ من المسلم العشر ومن المشرك الخراج » .

وظل المنذر بن ساوى ملكا على قومه بعد اسلامه وظل يدعو قومه بعد اسلامه الى دين الله ، وعاونه فى ذلك الجارود بن المعلى العبدى الذى كان قد قدم على الرسول فى المدينة وأسلم وتفقه فى الدين ، ثم عاد الى قومه يدعوهم الى دين الحق ويفقههم فيه [1] .

---

(١) المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل .. كتاب « الصديق أبو بكر » ص ١٨٥ .

ونستطيع أن نلخص هذين الاتجاهين فى الآتى :

(أ) الاتجاه الأول

أن بنى شيبان آمنوا بالاسلام حين سمعوا به فبعثوا وفدا منهم الى النبى فى عام الوفود يعلن دخولهم فى الاسلام ، فأرسل اليهم الرسول العلاء بن الحضرمى ليعلمهم شئون الدين ويفقههم فيه .

(ب) الاتجاه الثانى

أن الرسول بعث الى بنى شيبان رسالة يدعوهم فيها الى الدخول فى الاسلام أو دفع الجزية وكان رسوله اليهم هو العلاء بن الحضرمى وأن رسالة الرسول هى احدى رسائله التى بعث بها الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الدين الجديد .

ونخرج من هذا كله بالحقائق التالية ...

١ — أن بنى شيبان دخلوا الاسلام عن ايمان واقتناع .

٢ — أن اسلامهم كان فى المدة الواقعة بين العام السادس والعام التاسع الهجريين .

٣ — أن المثنى بن حارثة كان من الأولين الذين آمنوا

بالدين وأن زوجه سلمى أسلمت هى الأخرى معه في وقت واحد .

٤ — أن العلاء بن الحضرمى كان رسول رسول الله الى البحرين .

٥ — أن من لم يدخل الاسلام من أهل البحرين وهجر قبل دفع الجزية .

عامل المسلمين على البحرين ...

عين الرسول الكريم العلاء بن الحضرمى على البحرين عاملا له ... وقالت بعض الروايات ان الرسول صلى الله عليه وسلم ولى مكانه أبان بن سعيد بن العاصى بن أمية ، الا أن بعض الروايات قالت ان علاء كان على ناحية من البحرين منها القطيف ، وأن أبان كان على ناحية أخرى ، ولكن الرواية الأولى أثبت وأسلم وأصدق لأن أبان خرج من البحرين بعد وفاة الرسول وأتى المدينة ، وسأل أهل البحرين أبا بكر رضى الله عنه أن يرد العلاء عليهم ففعل ، ويقال ان العلاء بقى واليا على البحرين حتى توفى بها سنة ٢٠ هجرية .

وذكرت بعض المراجع أن عمر ولى أبا هريرة البحرين قبل موت العلاء الذى هاجر الى مكان فى أرض فارس وعزم على المقام بها ، ثم عاد الى البحرين حيث مات ، وقال أبو هريرة « دفنا العلاء ثم احتجنا الى رفع لبنة فرفعناها فلم نجده فى اللحد » .

وقال أبو مخنف ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه استدعى عامله على البحرين وهو العلاء بن الحضرمى ، وولى مكانه عثمان

ابن أبى العاصى الثقفى ، فلما قدم العلاء ولاه عمر البصرة مكان عتبة بن غزوان ، فلم يصل اليها حتى مات فى سنة ١٤ أو فى أوائل سنة ١٥ هجرية ، ثم ولى عمر قدامة بن مظعون الجمحى جباية البحرين وأبا هريرة الأحداث والصلاة ثم عزل عمر قدامة لشربه الخمر وولى أبا هريرة ، ثم عزله وقاسمه ماله ، ثم عين عثمان ابن أبى العاصى على البحرين وعمان ، وحدث فى ذلك القاسم ابن سلام عن يعقوب بن اسحاق الحضرمى أن أبا هريرة عندما قدم من البحرين قال له عمر « يا عدو الله وعدو كتابه أسرقت مال الله » فقال « لست عدو الله ولا عدو كتابه ، ولكن عدو من عاداهما ، ولم أسرق مال الله .. » قال « فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم ؟ » .. قال « خيل تناسلت وعطاء تلاحق وسهام اجتمعت » .. فقبضها منه عمر » .

الردة ...

منى الاسلام بفتنـــة عظمى بعد وفاة النبى ، ولو لم يتول أبو بكر الصديق اخمادها وقت ظهورها لعمت مصيبتها وفتكت بالاسلام ، ولكن حكمة أبى بكر وحزمه حالا دون أن يصاب الاسلام بنكسة خطيرة ، وأن يتفرق أمر المسلمين ، فما أن انتشر خبر وفاة الرسول حتى انتشر المنافقون ومن فى قلوبهم مرض يحرضون عــلى الردة وترك الاسلام ، وكثر المستمعون لهذه الدعوة وانقسموا قسمين .. قسم خرج عن الاســلام بالمرة .. وقسم ظل على اسلامه ولكنه غطل شريعة الزكاة .

وكان سبب ارتداد كثير من العرب أنهم كانوا يرون أن الرسول حي خالد لا يموت ، وأنه سفير الله اليهم يبلغهم أوامره ونواهيه ، وأنه معصوم من الموت ، فلما انتقل الى جوار ربه طاش صوابهم ، واستغل بعض الطامعين فى الملك والسلطان الفرصة ، فأخذوا ينشرون الفتن ويعلنون ظلما أن قريشا تريد أن تستعبد الناس ، وأن تجعل النبوة ملكا لها تتوارثه فى أبنائها ، وكان أصحاب الفتنة يرددون قول الخطيل بن أوس ...

أطعنا رسول الله ما كان بيننا
فيا لعباد الله ما لأبى بكر

أيورثها بكرا اذا مات بعده
فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

واختلفت الآراء بالنسبة للردة ، فعمر كان يرى محاربة الذين ارتدوا عن الاسلام وتركوه ، وكان يعارض محاربة الذين منعوا الزكاة استنادا الى قول الرسول الكريم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى مالهم وأنفسهم » .

ولكن أبا بكر كان له رأى آخر يتعارض مع رأى عمر ، اذ كان يرى عدم التفرقة بين الطائفتين ، ويدعو الى محاربتهما معا « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .. والله لو منعونى عناقاً أو عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها » .

ووافق عمر على رأى أبى بكر وقال « فوالله ما هو الا أن رأيت أنه قد شرح الله صدرى لما قال أبو بكر فعلمت أنه الحق . »

الردة فى البحرين ..

كان للبحرين نصيب فى الردة .

فبعد وفاة الرسول بقليل مات المنذر بن ساوى ، وبموته ارتدت قبائل المنطقة من ولد قيس بن ثعلبة بن عكابة ، وارتدت بكر ابن وائل من بنى ربيعة .

أما بنو عبد القيس فلم يلبثوا أن رجعوا الى الاسلام بفضل الجــارود بن المعلى العبدى الذى ناقشهم فى أمر دينهم وعاب عليهم ردتهم وأخذ يدعوهم بالحسنى حتى عادوا ... لقد قال لهم « هل تعلمون أن الله بعث أنبياء قبل محمد ؟ » ، قالوا « نعم » ، قال « هل تعلمون أنهم أحياء أو ماتوا ؟ » ، فقالوا « لقد ماتوا » ، قال « ان محمدا مثلهم قد مات وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله » فرجعوا معه الى الدين وهدأت ثورتهم .

أما زعيم بنى بكر فكان الحطم بن ضبيعة [١] ، وكان جبارا عاتيا فأعلن ارتداده عن الاسلام ، وأخذ يدعو الى قتال أبى بكر والى منع الزكاة ، واجتمع حوله عدد كبير ، فسار بهم الى قطيف وهجر ، وهناك التقى برجال الجارود وكانوا — كما ذكرنا — ثابتين على اسلامهم فآذاهم .

وكان لابد لأبى بكر من أن يجعل للبحرين نصيبا من الحرب التى قررها ضد المرتدين والتى عرفت فى التاريخ الاسلامى باسم حروب الردة ويشير المرحوم محمد حسين هيكل فى حديثه [٢]

---

(١) سمى الحطم بقوله « قد لفها الليل بسواق حطم » .
(٢) كتاب « الصديق أبو بكر » .

عن حروب الردة الى حرب المرتدين فى البحرين فيقول « ليس عجيبا أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالاسلام على عهد رسول الله فى عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض ثم تكون آخر من يعود الى الاسلام بعد حروب طاحنة تختم حروب الردة وتعيد الى البلاد العربية وحدتها الدينية وتقيم فيها الوحدة السياسية » .

واختلفت الروايات فى الموعد الذى نشبت فيه حرب الردة فى البحرين ... هل كانت فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، أم فى السنة الثانية عشرة ... وهذا الاختلاف لا أثر له لأن المعروف أن حروب الردة بدأت واستمرت متصلة منذ بيعة أبى بكر الى أن انتهت باذعان جميع القبائل فى الجزيرة .

وعندما فرغ المسلمون من حرب المرتدين فى بنى أسد وبنى تميم وفى ربوع اليمامة اتجهت النية الى حرب المرتدين فى جنوب الجزيرة العربية وكان أمامهم طريقان ..

الأول : البدء بالبحرين ثم السير فيها الى عمان ومهرة واليمن .

الثانى: البدء باليمن ثم كندة فحضرموت ثم البحرين .

فرأى المسلمون أن يبدءوا بالبحرين لأنها كانت تجاور اليمامة حيث انتصروا فى موقعة عقرباء وانتصارهم هذا له أثره فى أهل البحرين ، هذا فوق أن البدء بها كان أدنى الى فوز يجر وراءه فوزا مثله فى جميع البلاد التى تجاورها .

لواء العلاء بن الحضرمى ..

كان أبو بكر قد عقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائدا وأسند اليهم مهمة القضاء على الردة ، وكان أحد هذه الألوية بقيادة العلاء بن الحضرمى ، وكانت وجهته البحرين ، وبعث أبو بكر الى المرتدين خطابا مع قادة الألوية جاء فيه [1] « قد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان .. وانى بعثت اليكم (فلانا) فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد الا الاسلام .. » .

حصار الجارود ...

قلنا ان المنذر بن ساوى مات فى الشهر الذى مات فيه الرسول، وارتد على أثر موته أهل البحرين جميعا عن الاسلام ، وفر العلاء ابن الحضرمى كما فر غيره من رسل النبى فى البلاد التى ارتدت واستطاع الجارود العبدى أن يبقى على اسلامه ، كما استطاع أن يعيد قومه الى الاسـلام فثبتـوا عليه بعد ردتهم ، الا أن بنى عبد القيس ظلوا على ردتهم وتزعمهم فى ذلك كما سبق القـول

---

(١) الطبرى .

الحطم بن ضبيعة ورد هؤلاء الملك الى آل المنذر ، وجعلوا المنذر ابن نعمان بن المنذر ملكا عليهم وسموه الغرور .

خرج الحطم الى القطيف وهجر وضم اليه بعض أهليها ، ثم من لم يكن قد دخل فى الاسلام أصلا ، وحاصر الحطم الجارود ومن معه فى ناحية جواثى مؤيدا من فارس وبلاطها .. وظل على حصاره للجارود ومن معه حتى اشتد عليهم الجوع وكادوا يهلكون [1] ، ورغم هذا ظلوا على ما هم عليه من الاسلام ، وهانت عليهم الحياة فى سبيل تمسكهم بدينهم .

تحرك العلاء الى البحرين ..

تحرك لواء العلاء الى البحرين ، وانضم اليه حين مروره باليمامة نفر من مسلمى بنى حنيفة بقيادة ثمامة بن أثال الحنفى ولحق به أيضا قيس بن عاصم المنقرى [2] فى قومه ، وكثير من أهل اليمن ومن سائر القبائل التى شعرت بقوة المسلمين وأدركوا أن سلطانهم لا محالة عائد .

سلك أبو العلاء بالناس مغاور الدهناء الى غايته ، فلما جن الليل أمر الناس بالنزول حتى لا يضلوا فى تيه الصحراء .. وذكرت

---

(١) فى ذلك يقول عبد الله بن حذف الكلابى :

الا أبلغ أبا بكر ألوكا وفتيان المدينة اجمعينا
فهل لك فى شباب منك أمسوا أسارى فى جواث محاصرينا

(٢) كان قيس قبل أن ينضم مع قومه الى العلاء فيمن منعوا الزكاة وردوا الصدقات الى الناس فلما مر العلاء باليمامة بعد انتصار خالد عاد قيس فجمع الصدقات وساقها الى العلاء وخرج معه الى قتال أهل البحرين .

بعض المصادر أن القوم بعد أن نزلوا فرت ابلهم منهم وتفرقت فى الصحراء وهى حاملة الماء والزاد ، وارتاع الرجال لما حدث حتى أنهم أيقنوا الموت ، وأوصى بعضهم الى بعض ، الا أن العلاء أعاد اليهم هدوءهم بثقته فى نفسه وايمانه العميق بالله فقد تساءل « ما هذا الذى ظهر فيكم وغلب عليكم ؟ » فأجابه الناس « كيف نلام ونحن ان بلغنا غدا لم تحم شمسه حتى نصير حديثا » فرد عليهم « أيها الناس لا تراعوا ! ألستم مسلمين ! ألستم فى سبيل الله ! ، ألستم أنصار الله ! » قالوا « بلى » قال « فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان فى مثل حالكم » ، وفى الصباح التالى صلى الناس الفجر واستغرقوا فى الدعاء فلاح لهم سراب وقال رائدهم انه الماء فذهبوا اليه [1] فشربوا واغتسلوا ، ثم جاءتهم ابلهم من كل صوب .

وبلغ الجيش الاسلامى البحرين .

وبمجرد وصوله أرسل العلاء الى الجارود — وكان ما زال محاصرا هو وقومه يشد من عزيمته ، ثم أخذ يبحث الموقف فوجد أن مواجهة المرتدين أمر عسير ، فأمر بحصارهم ، واستمر الحصار شهرا وخندق كل فريق على نفسه وكانوا يتبادلون القتال فى النهار ثم يعودون مع الليل الى الخنادق .

---

(١) ابدت بعض المصادر الشك فى هذه الرواية ، ولكن يقطع بصدقها الكتاب الذى بعث به العلاء الى أبى بكر بعد انتصاره وسيأتى ذكره فى حينه . وجاء فى بعض المصادر ان أبا هريرة وصاحب له عادا الى المكان الذى كان به الماء ، فلم يجدا به ماء . وذكر البعض أن ذلك كان آية من آيات الله .

انتصار المسلمين ...

وفى احدى الليالى جاء نصر الله ...

فقد سمع المسلمون فى عسكر المرتدين ضوضاء وجلبة فبعث العلاء بعيونه تأتيه بالخبر اليقين ، فجاءته الأنباء بأن القوم قد سكروا حتى فقدوا السيطرة على أنفسهم ، وأن الواحد منهم لا يملك دفاعا عن نفسه ، فخرج المسلمون من خندقهم وهاجموا مواقع المرتدين ، ووضعوا فيهم السيوف وجعلوا يقتلون كل من أصابوا ، وكان ممن قتل الحطم اذ وجده قيس بن عاصم ملقى على الأرض فقتله ، وفى قتله يقول مالك بن ثعلبة العبدى ...

تركنا شريحا قد علتــه بصـيرة [1]
كحاشـية البرد اليمـانى المحبر

ونحن فجعنـا أم غضـبان بابنهـا
ونحن كسرنا الرمح فى عـين حبتر

ونحن تركنـا مسـمعا متجـدلا
رهينـة ضـبع تعتريه وأنسر

وقتل المنذر [2] وأسر فى المعركة عفيف بن المنذر الغرور ، فلما مثل بين يدى العلاء قال له « أنت غررت بهؤلاء » فأجاب بعد أن

---

(١) البصيرة من الدم ما وقع فى الارض .

(٢) أختلفت الروايات فى موت المنذر

- قيل انه نجا ولحق بمسيلمة ثم قتل معه .
- وقيل انه قتل يوم جواثى .
- وقيل انه استأمن ثم هرب فلحق وقتل .

أعلن اسلامه قائلا « أني لست بالغرور ولكنى المغـرور » فعفا عنه العـلاء .

ولقد ذعر المرتدون واضطربوا وفروا الى جزيرة دارين[1] ولحق بهم بعض من المسلمين الذين عبروا البحر خلفهم سـباحة وقاتلوهم حتى ظفروا بهم ولم يبق بالجزيرة ملجأ لمرتد ، وتقول الروايات ان المسلمين لم يجدوا سفنا يركبونها لتذهب بهم الى الجزيرة فنهض فيهم العلاء وقال « ان الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشرد الحرب فى هذا البحر ، وقد أراكم الله من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر فانهضوا الى عدوكم ثم استعرضوا البحر اليهم فان الله قد جمعهم » ، فأجابوا قائلين « نفعل ولا نهاب بعد الدهناء والله هو لا ما بقينا » .

وعندما وصلوا الى شاطىء البحر اقتحموا على الخيل والبغال والجمال ودعوا الله فاذا بهم يجتازون البحر على رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الابل [2] .

وغنم المسلمون مغانم كثيرة من مال وسبى حتى أن نفـل الفارس بلغ ستة آلاف والراجل ألفين ، ويقول فى ذلك عفيف ابن المنـذر ...

---

(١) احدى جزر الخليج الفارسى فى مواجهة البحرين .

(٢) جاء فى بعض الروايات أن من أنضم الى المسلمين من أهل المنطقة أعاروهم سفنا عبروا بها البحر .

وتجرى رواية بأن المسلمين لم يذهبوا الى جزيرة دارين ، وانما بقيت الجزيرة على عزلتهـا حتى عهد عمر بن الخطاب فعادت فى عهده الى الاسلام .

ألـــــم تر أن الله ذلل بحـــــره
وأنزل بالكفار احـــدى الجـــلائل
دعونا الذى شق البحـــار فجـــاءنا
بأعجب من خلق البحـــــار الأوائل

ولما تم النصر للمسلمين كتب العلاء الى أبى بكر الصديق « أما بعد فان الله تبارك وتعالى فجر لنا الدهناء فيضا لا ترى غواربه ، وأرانا آية وعبرة بعد غم وكرب لنحمد الله ونمجده ، فادع الله واستنصره لجنده وأعوان دينه » .

فلما قرأ أبو بكر كتاب العلاء أخذ يحمد الله ويقول « ما زالت العرب فيما تحدث عن بلدانها تقول ان لقمان حين سـئل عن الدهناء أيحتفرونها أو يدعونها نهاهم وقال لا تبلغها الارشية ، ولم تقر العيون وأن شأن هذا الفيض من عظيم الآيات وما سمعنا به فى أمة قبلها [1] .

دور المثنى ...

ترى ماذا كان موقف المثنى فى هذه الحرب ؟
هل ارتد وبقى على ردته ؟
هل ارتد ثم عاد مع من عاد الى الاسلام ؟
هل بقى على الاسلام ولم يرتد أبدا ؟

ان الايمان القوى الراسخ فى صدر المثنى هو الذى حـــدد موقفه من الردة والمرتدين ، فقد أبى عليه هذا الايمان أن يعود

---

(١) تاريخ الطبرى .

أدراجه الى الجاهلية وهو الذى آمن عن عقيدة وعن شعور وعن ثقة فى أن الاسلام هو الدين الحى الذى بعث به الله تبارك وتعالى الى الناس جميعا ، وجعله خيرا للبشرية كلها ، ولهذا رفض المثنى كل دعوة الى الردة فى صدق واصرار وعزيمة ...

ولم يكن موقفه من الردة سلبيا وانما اتخذ موقفا ايجابيا فقد صمم على أن يدافع عن الدين الذى آمن به ودخل فيه ، ولهذا جمع الجموع وانضم بها الى جيش العلاء بن الحضرمى ، ودعا أهله من بنى شيبان ليبقوا على دينهم وليخرجوا مع الخارجين لمحاربة المرتدين ولصيانة الدين .

وما ان تم للعلاء الانتصار على المرتدين فى خندقهم — كما روينا — حتى أسرع المثنى على رأس جيش كبير العدد ونشر جنده على طول ساحل البحر ليصد المنهزمين الفارين عن ركوبه ، وفتك بهم فتكا ذريعا ، ويرجع اليه فضل الانتصارات الكبيرة التى أحرزها المسلمون على طول خليج البصرة .

واستطاع المثنى أن يستولى على القطيف ، وأن يصل بقواته الى دلتا الفرات مهددا دولة الفرس التى كانت تسند القوات المرتدة بقيادة الحطم ، وتؤيدها وتعينها على ردتها ، وتمكن المثنى من مقاومة دسائس الفرس ومن القضاء على أنصارها من مختلف القبـائل .

ولقد كان اتصاله بأرض العراق ودعوته هناك الى الاسلام بداية ومقدمة لفتح العراق وضمه الى الدول الاسلامية ، كما سيأتى ذكره فيما بعد .

الباب الثالث

أرض السّواد والحيرة
بين غارات المثنى وقتل خالد

أبوبكر — من هذا الذى تأتى أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟

قيس بن عاصم — هـذا المثنى بن حارثة الشيبانى ... رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد .

أرض السواد ...

قلنا ان المثنى بن حارثة تقدم بقواته التى بلغت الآلاف من بنى شيبان حتى وصل الى أرض السواد .

وأرض السواد هذه يقصد بها أرض العراق .

وسميت بأرض السواد لأن العرب كانوا اذا خرجوا من أرضهم التى لا زرع فيها ولا شجر ، وقعت أبصارهم على خضرة الزرع والأشجار والنخيل فى أرض العراق فأطلقوا عليها أرض السواد لخضرتها بالزروع والأشجار ، وكان العرب يسمون الأخضر سوادا والسواد أخضرا ، وفى ذلك يقول الفضل ابن العباس بن عتبة بن أبى لهب وكان أسود ...

وأنا الأخضر من يعرفنى
أخضر الجلدة من نسل العرب

وكان العرب يحددون أرض السواد من حديثة الموصل الى عبدان طولا ، ومن العذيب بالقادسية الى حلوان عرضا [1] .

اذن كان العرب يرون فى أرض السواد بلادا أسبغ الله عليها من الماء والخضرة ما صيرها بهما جنة الفردوس .

---

(١) حديثة الموصل كانت بلدة على دجلة قرب الخراب الأعلى .
العذيب موضع يبعد عن القادسية أربعة أميال .
حلوان هى آخر حدود السواد بغرب الجبل ولم يكن للعراق مدينة قرب الجبل غيرها وهى الآن تابعة لايران فى شرقى خانقين .

وكانت السواد مستعمرة فارسية رغم أن كثيرا من العرب يعيشون فيها ، ولهذا كانوا يرونها عربية يجب أن تكون تابعة للعرب دون الفرس ، ومن هنا بدأ التفكير جديا فى انقاذها من أيدى الفرس وشغل أمر انقاذها القائد العربى المثنى بن حارثة ، فأخذ يبحث ويدرس الوسائل التى تحقق أمله الكبير فى ضم أرض السواد الى سلطة العرب ، ونشر الراية العربية فوق هذه الأرض .

مملكة الفرس ...

المعروف أن مملكتى الفرس والروم كانتا أعظم الممالك المجاورة للعرب ، وكان ملوك الدولتين من الطغاة الذين استعبدوا الناس وأذلوهم .

ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو ملكى الفرس والروم الى الاسلام فأرسل اليهما برسائله ، وعندما تلقى ملك الفرس وامبراطورهم كسرى أبرويز كتاب الرسول الكريم مزقه استكبارا وجبروتا وبعث الى عامله فى اليمن ويدعى باذان أن يرسل من عنده رجلين جلدين الى محمد فيأتيا به ، ونفذ باذان أمر مولاه ، فلما دخل الرجلان المدينة وكلمهما رسول الله وحدثهما عن الاسلام ودعاهما اليه ، وأبان لهما أن عاقبة الظلم وخيمة ، وأن كسرى ظالم قد علا فى الأرض وطغى ، وأن الله قد انتقم منه وسلط عليه ابنه شيرويه فقتله — وكان الأمر كما أخبر رسول الله وتحقق منه الرجلان — أسلم الرجلان .

ولما تولى الأمـــر فى بلاد الفرس شـــيرويه بعث الى باذان ألا يتعرض للرسول العربى ، وكان ذلك بدء نشوء الاسلام فى اليمن اذ أعلن باذان اسلامه فأبقاه الرسول على امارته ، وكانت اليمن بذلك أول بلد خاضع للفرس يدخل الاسلام وتبعه البحرين وبلاد عمان ، ولم تحاول الفرس استرداد هذه الامارات بعـــد انفصالها عن سلطانها لأنها كانت تشكو حالة من الضعف نتيجة لهزيمتها أمام جيوش هرقل فى نينوى ودستجرد [1] .

ولما مات الرسول وتولى أبو بكر الخلافة ثم انتهى من فتنة الردة وأرجع العرب الى دين الله ، ووطد قواعد الاسلام فى الجزيرة تطلع الى أرض السواد ، وكانت فى هذه الآونة عربية اللغة والعنصر ولكنها فارسية الحكم ، ومنذ أحس عرب العراق صوت الاسلام يدوى فى أرجاء الجزيرة العربية قويا قاهـــرا ، تحركت عندهم غريزة مناصرة ومغالبة هذه الدولة الفتية الجديدة ، وكان هؤلاء لا يعرفون دينا قيما يجمعهم ولم تكن تجمع بينهم سوى وحدة اللغة ، وأثار الاسلام فيهم أريحية الكرامة وبصرهم بأنفسهم ، وأشعرهم بشخصيتهم ، وعرفهم أن لهم رسالة فى الحياة أسمى وأجل من كل ما عرفوه أو سمعوه ، وأمدهم برباط الاخاء العام فى وحدة اللغة والدين . وكان هؤلاء يعانون فوق ما كانوا يعانونه من المذاهب والنحل المختلفة اذلال الحكام واستبدادهم ، هذا

---

(١) كانت الحرب قد قامت بين الفرس والروم قبيل وفاة الرسول ، وحطم هرقل جيوش الفرس فى موقعتى نينوى ودستجرد وتقدم حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم .

فوق الاضطراب الكبير الذى ساد البلاد فى هذه الفترة اذ ثارت الفتن بين الأمراء ، وقد أخذ كل أمير يسعى الى قتل الجالس على العرش ليأخذ مكانه حتى لقد ادعى هذا العرش فى سنوات أربع تسعة من الأمراء كانوا يقتلون عليه فيقتل بعضهم بعضا جهرة حينا وغيلة حينا .

لماذا أغار المثنى على السواد ..

تتبع المثنى أحوال العجم ، وتنسم أخبار العرب القاطنين فى أرض السواد ، وعلم من دراساته لأحوال العرب أن العجم يسيمونهم الأذى ، وقد استضعفوهم فشنوا عليهم الغارات مستغلين فى ذلك ملوك الحيرة الذين يخضعون لسلطانهم ، وعرف المثنى أن العرب يقاسون من ظلم العجم الكثير ، وأنه لا أمن ولا سلام لعرب فى وسط العجم ، وكان مما عرفه أيضا ذلك الاضطراب العنيف الذى يعيش فيه العجم داخل بلادهم فالناس هناك حاقدون على الولاة ، وفروع البيت المالك فى نزاع مستمر .

اذن فالبلاد التى يقف المثنى على أبوابها بلاد مزعزعة الأركان مهلهلة الجوانب لا ضابط فيها ولا رابط ولا منظم للشئون .. تعمها الفوضى والاضطراب .. أهلها مختلفون شيعا وأحزابا .. وأمراؤها نافرون .. وفيها يعيش الناس فى مذلة وهوان .

وقفز الى ذهن المثنى هـذا السؤال .. لماذا لا يقتحم أرض السواد بمن تبعه من بنى شيبان ؟ ! .. ان تحت يديه ثمانية آلاف مقاتل من خيرة الأبطال ، فلماذا لا يخرج بهم الى أرض السواد فيمد يده الى العرب المقيمين هناك يرد لهم اعتبارهم

ويصد عنهم ظلم الحكام ويرتفع بنفوسهم الى مراتب الكرامة والرضى ، وينشر بينهم مبادىء الاسلام الخالدة ويأخذ بآيديهم الى حياة أفضل تليق بهم كأفراد فى العائلة الانسانية .

أولى غارات المثنى ..

بعد أن أسهم المثنى فى القضاء على المرتدين فى البحرين تقدم الى القطيف وهجر ، وبلغ مصب دجلة والفرات ، ومن هناك بدأ غاراته المتعددة على احدى مدن الفرس العتيقة وتسمى دهشتاباذ أردشير واستطاع أن يدخل المدينة وأن يخربها بعد أن غنم أموال قاطنيها ، وسماها العرب لكثرة ما أصابها من الخراب الخريبة[1] ، ثم اتجه المثنى الى مدينة الأبلة [2] ، وكانت بها قوة فارسية كبيرة فانتصر عليها ووقع فى يده منها أسرى كثيرون ..

وعطف المثنى بعد ذلك على الحيرة ، ووقعت مناوشات كبيرة

---

(١) بنيت مكانها مدينة البصرة القديمة فى زمن الخليفة عمر ابن الخطاب واهتم المسلمون بهذه المدينة فيما بعد حتى أصبحت من أهم بلادهم وسميت خزانة العرب .

(٢) فى موقع البصرة الحالية .

قيل أن معالم هذه المدينة محيت حين دخلها الزنج فى عام ٢٥٦ هجرية فقتلوا رجالها ونهبوها وأحرقوها .

ويقول مؤرخو العرب انها مدينة قديمة على الشط فى زاوية الخليج الذى يدخل الى البصرة وهى أقدم من البصرة التى وجدت أيام الخليفة عمر بن الخطاب فى الوقت الذى كانت فيه الأبلة مدينة عامرة فيها مسالح للفرس .

وقال الدينورى فى الأخبار الطوال « لم يكن موضع البصرة يومئذ الا الخريبة وكانت الابلة مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين » .

بينه وبين سكانها ، وكانت شجاعته وقوته وبطولة رجاله من العوامل الكبيرة التى أثارت روح النفور والتمرد فى القبائل العربية ضد الحكم الفارسى حتى بلغ الأمر ببعض هذه القبائل أن حملت السلاح فى وجه حكامها .

الحيرة (١) ...

تقع الحيرة على ثلاثة أميال من مكان الكوفة فى موضع يقال له النجف على ضفة الفرات الغربية فى حدود البادية بينها وبين العراق ... اتسعت مبانيها ، وأقيمت فيها المنازل والقصور والحدائق حتى ان عاصم بن عمرو قال فى وصفها ..

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا
ورجلا فوق أثباج الركاب
حضرنا فى نواحيها قصورا
مشرفة كأضراس الكلاب

واشتهرت الحيرة بصحة هوائها حتى قيل « يوم وليلة فى الحيرة خير من دواء سنة » .. وكان بجوارها قصران كبيران هما الخورنق والسدير .

---

(١) قيل سميت الحيرة بمعنى الضلال لأن من بلغ موضعها ضل دليله وتحير .

وقيل انها سميت كذلك لأن مالكا حين نزلها جعلها حيرا أى بستانا .

وقيل سميت الحيرة من الحوار أى البياض لبياض أبنيتها .
وقيل ان لفظها سريانى معناه الحصن أو المعتقل حوله خندق .

ولما كانت الحيرة على طرف العراق فى الغرب ، وتليها البادية فقد رغب فيها البدو ، كما جاءتها جماعات من مدن العراق والجزيرة ، وقامت مملكة الحيرة حين كثر سكانها وزاد اتساعها وكان من أشهر ملوكها [1] عمرو بن عدى [2] ، وامرؤ القيس ابن عمرو ، وعمرو بن امرىء القيس ، والمنذر بن النعمان ، والمنذر بن المنذر والنعمان بن الأسود ، والنعمان بن المنذر ابن ماء السماء ، والمنذر بن النعمان الغرور [3] .

ولقد ولد الرسول الكريم فى السنة التاسعة من حكم عمر ابن هند [4] .

وامتد ملك النعمان بن المنذر أبو قابوس حتى بلغ دجلة

---

(١) بلغ ملوك الحيرة ٢٢ ملكا تولوا الملك مدة ٣٦٤ سنة وكان أطولهم ملكا عمرو بن امرىء القيس (٤٩ سنة) ، وأقلهم المنذر ابن المنذر بن ماء السماء وعلقمة أبو يعفر (٣ سنوات) .

(٢) يقول الطبرى ان أول ملك للحيرة من العرب هو مالك ابن فهيم من الأزد وخلفه أخوه عمرو بن فهيم فى رواية وجذيمة الأبرص فى رواية أخرى ، ويقول عنه الطبرى انه « من أفضل ملوك العرب رأيا وأبعدهم مغارا وأشدهم نكاية وأظهرهم حزما وأول من استجمع له الملك بأرض العراق ، وضم اليه العرب وغزا بالجيوش » ... (الطبرى ج ٢ ص ٣٠) وأيده فى ذلك اليعقوبى .

(٣) هو آخر ملوك الحيرة قتل فى البحرين يوم جواث ، ويقول ابن الكلبى أن المنذر حكم ثمانية أشهر بالحيرة قبل فتح خالد لها ، ويخالف جواد على ابن الكلبى ، ويقول ان المنذر لم يحكم الحيرة وانما حكم البحرين فى أثناء الردة وحاربه المسلمون وسقط أسيرا فى أيديهم .
تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٤ ص ١٠٤ .

(٤) بلغ عمر ملكه ١٦ سنة .

حيث بنى مدينة النعمانية على مقربة من المدائن عاصمة كسرى ، فلم يرض كسرى أبرويز عما بلغ النعمان من سلطان وما يرفل فيه من نعمة [1] فحبسه وقتله ثم قضى على سلطان اللخميين ، وأقام مقامه أياس بن قبيصة وأقام معه مرزبانا فارسيا يدعى بهرجان .

ابو بكر وفكرة الغزو ..

بعد أن انتهى أبو بكر من حروب الردة عاوده التفكير فى دفع المسلمين الى خارج شبه الجزيرة حتى ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة ، وتنصرف أذهانهم عن أى تصرف قد يسىء الى موقف الاسلام والمسلمين وحتى يجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضغنهم على يثرب وأهلها ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله فى خارج الجزيرة .

وكان أمام أبى بكر وجهتان ... اما أن يوجه جيوشه الى بلاد الفرس ، واما أن يوجهها الى بلاد الروم وكلاهما يتاخم الجزيرة العربية من شمالها .

ولكن الى أين يوجه أبو بكر ضربته ؟ .

أالى بلاد الروم ؟ ... ان غزو الروم أمر فيه خطورة فان لم يحالف المسلمين النصر تعرضت الجزيرة العربية لخطر أشد من هذا

---

(١) قيل أن النعمان على قبح صورته كان مترفا ولوعا بمتع الحياة وتزوج امرأة أبيه المتجردة وكانت ذات جمال بارع فأحبت المنخل اليشكرى فقتله النعمان وأنشأ لها الحدائق وجلب لها ابهج الزهور طمعا فى أن تبادله الحب .

الخطر الذى تعرضت له حين قامت الردة فيها وقد تؤدى هزيمة المسلمين الى وقوع بلادهم فى قبضة الروم فيرتد المسلمون عن دينهم .

أالى بلاد الفرس ؟ ... ان التفكير فى توجيه الضربة الى بلاد الفرس لم يمر بخاطر أبى بكر لأنها تتاخم المناطق العربية التى فشت فيها الردة والتى يتعذر على أبى بكر أن يعتمد على أهلها أو أن يأمنهم فى قتال ضد دولة قوية ذات جيوش جرارة وموارد كثيرة .

ولم تتضح الصورة جيدا أمام أبى بكر ولهذا قرر أن يتجه بجهوده الى داخل الجزيرة يوطد الأمن بها ، ويؤكد وحدة أهلها ، واتجه فعلا هذا الاتجاه ، حتى أنه أخذ عليه كل وقته فى العام الأول لخلافته ، فلم يقم بالحج بالناس وانما أناب عنه عتاب ابن أسيد عامله على مكة واستمر هو — بمساعدة عمر بن الخطاب الذى ولى القضاء ، وأبى عبيدة بن الجراح الذى ولى شئون المال ، وعثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت اللذين توليا كتابة الأخبار للخليفة — فى وضع النظم الادارية للدولة الجديدة .

أنباء المثنى ...

وبينما أبو بكر يعطى اهتمامه لشئون الدولة ، اذ وصلته أنباء من العراق أن قائدا عربيا من البحرين من بكر بن وائل يسمى المثنى بن حارثة قد سار بقواته شمالا ووضع يده على القطيف وهجر وبلغ مصب دجلة والفرات وقضى على الفرس وعمالهم ، وتابع سيره الى الشمال ، ونزل فى قبائل العرب التى تقيم بدلتا النهرين وتحدث اليهم وتعاهد معهم .

وعاد أبو بكر على أثر هذه الأنباء يفكر من جديد فى دفع المسلمين الى عمل خارج شبه الجزيرة وقد رأى أن المثنى قد طار صيته فى الآفاق وأن القبائل تلهج باسمه وتردد أنباء وقائعه وأخبار انتصاراته فسأل من حوله عن المثنى قائلا « من هذا الذى تأتينا أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ » .

فانبرى له قيس بن عاصم بن سنان وأجابه قائلا « هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ... هذا المثنى ابن حارثة الشيبانى » .

من خلال العوامل التالية رأى أبو بكر أن يوجه جيوش المسلمين الى أرض السواد عندما تحين له فرصة مواتية ...

١ — فى استطاعة المثنى أن يتوغل فى العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية .

٢ — الرغبة فى صرف المسلمين عن ثاراتهم وتوجيههم الى ما يعود بالخير على الاسلام والمسلمين .

٣ — القبائل العربية فى العراق من بنى لخم وتغلب وأباد والنمر وبنى شيبان تهوى نفوسهم الى منابتهم فى شبه الجزيرة .

٤ — تأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس وعدوانهم .

٥ — دلتا النهرين مليئة بألوان الزرع والفاكهة والطير والحيوان ودهاقين الفرس يستولون على غلتها فى حين أن العرب المقيمين هناك لا ينالون الا ما يجود به هؤلاء وهو فى الغالب قليل .

٦ — الانتصار على الفرس خطوة تتلوها خطوات واسعة تعود بالخير على الاسلام والمسلمين .

لقاء المثنى وأبى بكر ...

عندما اشتدت غارات المثنى على أرض السواد لم يستطع العجم أن يسكتوا ازاءها ، ولهذا بدءوا ينتبهون ويقدرون هذا الخطر الكامن وراء هذه الغارات المتتالية للمثنى ، فأعدوا الجيوش ورتبوا القوى وتأهبوا لملاقاته وأوعزوا الى القبائل الكلدية الساكنة عند مصاب الفرات لتتعرض له وتسد جموعه ، ولكن هذه القبائل لم تستجب لهذه الدعوى لأنها قبائل عربية أصلا[1] وأبت عليها عروبتها أن تحمل سلاحها فى وجه اخوة لهم من العرب .

وبعد تعدد غارات المثنى رأى بعمق تفكيره وسلامة ادراكه أن هذه الغارات يجب أن تسهم فيها الحكومة المركزية فى المدينة وذلك فى ضوء ...

١ — ليس من المستطاع لقواته التى تعمل تحت امرته أن تستولى وحدها على مملكة عظيمة مترامية الأطراف كمملكة الفرس التى تدين لها جميع بلاد العراق حتى شواطىء بحر قزوين ، وخاصة أن قواته فى حاجة دائمة الى الامداد بالرجال لتعويض الخسائر .

(١) ذهب العلامة الانجليزى سايس الى أن قبيلة كلدة هى قبيلة من الساميين نزلت عند مصب النهرين وانها طليعة قبائل متعددة نزحت من شمال بلاد العرب ، ويقول الأب أنستاس مارى أن كلدة هو شيخ عربى أسس دولة كلدان .

٢ — حربه ضد الدولة ليس لها صورة رسمية ، وانما هى جهد فردى يقوم به مع قومه الذين عاونوه وأيدوه .
٣ — خوفه من أن تهزم قواته فتقع مسئولية الهزيمة على عاتقه وحده .
٤ — فى حالة انتصار الفرس عليه قد يشجعهم هذا الانتصار على تتبعه واسترداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها.

ولهذا أسرع المثنى الى المدينة حيث التقى بالخليفة أبى بكر الذى كان قد عرف الكثير عنه قبل أن يلقاه (١) .

ونقل المثنى الى أبى بكر صورة واضحة المعالم عن أرض السواد .. أخبره بتفاصيل غاراته ووقائعه وقدم له وصفا للحالة الداخلية لبلاد الفرس وجعله يقف على أمورها واضطراب حبل دولتها ، وانهيار كل قوة أو منعة فيها .

وما زال المثنى يهون على الخليفة أمر العراق ويغريه ببلاد فارس التى يطلقون عليها اسم جنة الأرض لكثرة غلاتها ووفرة خيراتها .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن المثنى لم يذهب الى المدينة ولم يقابل أبا بكر ، وانما أمعن فى السير بجيشه فى دلتا الفرات فلقيه هرمز فدارت بينهما معارك ووقائع وصلت أنباؤها الى أبى بكر فسأل عنه ، وعرف أخباره فأصدر امره الى خالد ليخف اليه ويعينه ، ويؤكد هؤلاء وجهة نظرهم بقولهم ان المثنى كان منتصرا ولم يكن فى حاجة الى مدد ، وان انتصاراته المتتالية شجعت أبا بكر على التفكير فى غزو العراق فامر خالد بالذهاب الى هناك ليعزز المثنى ويفتح الحيرة .
ووقف بعض المؤرخين من هذا الخلاف فى الرواية موقفا سلبيا ، ولم يرجحوا رواية على أخرى كالطبرى وابن الأثير .

هذا فوق أن المثنى طلب من الخليفة أن يقوم بتأمين العرب من أهلها وحمايتهم من شرور حكامها ..

وقال المثنى للخليفة « أقرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى . »

مشاورات أبى بكر ...

جمع أبو بكر أصحابه الذين اعتاد أن يعرض عليهم أهم الأمور وأخطرها وخاصة تلك الأمور التى ترتبط بتوسع أو فتح ، وعرض عليهم ما جاء من أجله المثنى ، وتداول القوم المشورة ، واستقر الرأى على أن يؤخذ رأى خالد بن الوليد بصفته رجلا عسكريا ذاع صيته فى جميع الأرجاء خبيرا بشئون الحرب والقتال ، وكان خالد فى هذه الأثناء قد فرغ من غزوة عقرباء ، وكان مقيما باليمامة ، فاستدعاه أبو بكر فجاء ، وعرض عليه الأمر فدرسه ثم وافق عليه ، وأيد مطالب المثنى تأييدا بعيدا مطلقا وأشار بضرورة الاسهام الايجابى فى عمليات العراق التى يقوم بها المثنى ومعاونته معاونة فعالة حتى يستطيع أن يفتح أبواب العراق أمام الجيوش الاسلامية .

وأقر أبو بكر رأى خالد ثم أقره الصحابة وأصدر أبو بكر أوامره بتأمير [1] المثنى واستمراره فى عملياته الحربية وكتب له عهدا بذلك .

---

(١) اى جعله أميرا على الجند .

عاد المثنى الى بلاد الفرس ، وتولى قيادة جيشه وأخذ يعد العدة للقيام بالدور الخطير الذى ألقى على عاتقه ، وأحس بالمسئولية الضخمة التى أصبحت فى عنقه .

وفى هذه الأثناء عاود أبو بكر التفكير فى أمر العراق ، ورأى أن يمد المثنى بقوات وامدادات تساعده وتسانده وتشد من أزره ليتحقق فى بلاد الفرس نصر سريع عاجل ، فأصدر أوامره الى خالد بن الوليد (١) بأن يجمع بقية جنده فى اليمامة ، وأن يسير بهم الى العراق ، على أن تكون له القيادة العليا بطبيعة الحال ، وفى ذات الوقت أمر أبو بكر عياض بن غنم بالسير الى دومة الجندل ، فاذا ما أخضع أهلها المتمردين تحرك شرقا الى الحيرة لمعاونة خالد فى مهمته .

وأوصى أبو بكر خالدا وعياضا ألا يضرا بفلاحى العراق وأهل السواد حرصا منه — رضى الله عنه — على منابع الثروة ، فالفلاحة هى مصدر حياة الناس ، وتقدمها أساس العمران فى الممالك ، ومن زاوية أخرى فان العرب فى العراق كانوا يعملون فلاحين فى أرضه وينالهم — كما سبق القول — القليل من خيره ، وأما وافر الخير فيذهب الى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم ، ولهذا أمر أبو بكر قواده بألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء ، وألا يقتلوا أحدا منهم ، ولا يأخذوا منهم

---

(١) ذكرت بعض المراجع أن أبا بكر أمر خالدا بالمسير الى العراق فى السنة الثانية عشرة هجرية .

أسرى ، ولا يسيئوا اليهم فهم عرب مثلهم ، يشعرون بالظلم تحت نير فارس فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين يكونوا تحت سيطرة العرب ، وكذلك أمر أبو بكر قواده باستبعاد كل من ارتد فلا يشترك فى حرب ولا يؤمن جانبه وذلك لضعف ثقته بأهل الردة بعد ما ظهر منهم من حرب المسلمين ، ولعله خشى أن تكون فى قلوب بعضهم ضغن على المسلمين فيبثون روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح [1] .

وأوصى أبو بكر خالدا بألا يجبر أحدا على السير معه بل يأذن لمن شاء من رجاله الرجوع والعودة .

وعندما تحرك خالد كان تحت امرته عشرة آلاف مقاتل واستقبله المثنى ومعه ثمانية آلاف وأمده الخليفة بالقعقاع ابن عمرو التميمى .

وعندما استقر خالد فى أرض العراق كان تحت امرته رجال أبطال ميامين باعوا أنفسهم فى سبيل الاسلام وخلصت نيتهم للدين الذى هيأ الله لأهله أسباب النصر ... ومن هؤلاء الرجال :

المثنى بن حارثة .

---

(١) سمح عمر وقت خلافته لكل المسلمين بما فيهم من ارتد بالاشتراك فى القتال وأبلى زعماء الردة مثل طلحة الأسدى وعمرو ابن معدى يكرب والأشعث بن قيس البلاء الحسن فى فتوح الشام والعراق وأستشهد منهم كثيرون فى الفتوح .

مذعور بن عدى العجلى : كان قد كتب لأبى بكر يستأذنه فى قتال الفرس ، فأمره أن ينضم الى خالد .

سويد بن قطبه الذهلى : وكان ينتظر وقومه من بكر بن وائل فى البصرة وصول خالد ليكون معه فى القتال .

عاصم بن عمرو
عدى بن حاتم الطائى
معقل بن مقرن المزنى

القعقاع بن عمرو التميمى : وكان خالد قد طلب من أبى بكر المدد فأمده بالقعقاع ، فسئل « أتمده برجل واحد » فقال « لا يهزم جيش فيه مثل هذا » .

المثنى الجندى ...

عندما وصل خالد الى بلاد الفرس كان المثنى على رأس قواته فى معسكر خفان — وهو موضع قريب من الكوفة وفوق القادسية — ونزل خالد بقواته فى محل يدعى النباج ، ثم كتب الى المثنى يطلب منه السير اليه بقواته .

وكجندى يعرف أن الطاعة للقائد واجبة وأن تنفيذ الأوامر هو أول صفات العسكرية الحقة ، تحرك المثنى — عندما تلقى أمر خالد — بكل جنده وضم قواته الى قوات خالد ، وأصبح منذ هذه اللحظة جنديا بسيطا كسائر الجند يعمل تحت امرة خالد بعد أن كان قائدا لجنده ، ولم يضايقه العمل تحت امرة خالد ، ولم يعتره الخور بل ضاعف الهمة وواصل الجهاد ووضع نفسه وسلاحه تحت امرة خالد ينفذ أوامره فى صدق وأمانة واخلاص .

كاظمة (١) ...

وكان أول اشتراك للمثنى فى الحرب تحت قيادة خالد فى المعركة التى دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الفرس بقيادة هرمز ، وكان هرمز هذا أميرا ممن تم شرفهم (٢) كما كان من أسوأ أمراء الفرس معاملة للعرب حتى بلغ من حقدهم عليه أن جعلوه مضرب المثل فى الكفر والخبث وكانوا يقولون « أخبث من هرمز » ، « وأكفر من هرمز » ، وكان هرمز يعد نفسه حامى البلاد التى تعد مفتاح فارس ، وكان ينازل العرب فى كل مكان برا وبحرا .

أعاد خالد تنظيم قواته فى أول لقاء ، وقسم الجيش الى ثلاث

---

(١) تسمى أيضا ذات السلاسل لأن هرمز ورجاله كانوا مقيدين ومقرونين بالسلاسل حتى لا يفروا .

(٢) كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم ، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف وتلك كانت قيمة قلنسوة هرمز .

فرق ، ولم يحمل الفرق الثلاث على طريق واحد بل جعل المثنى على رأس فرقة هى مقدمة الجيش ، وجعل عدى بن حاتم وعاصم ابن عمرو على رأس فرقة أخرى تلى فرقة المثنى ، ثم خرج هو بنفسه على رأس الفرقة الثالثة ، وحدد مكان اللقاء والتجمع للفرق الثلاث فى الحفير ، وتقدمت الفرق الثلاث الى أغراضها بفاصل يوم واحد .

ودعا خالد هرمز الى واحدة من ثلاث .. الاسلام أو الجزية أو القتال « أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وعلم خالد أن هرمز قد سبق القوات الاسلامية الى الحفير واحتلها فغير وجهة قواته الى كاظمة ، فلما علم بذلك هرمز أسرع اليها ونزل على الماء بها ، فاضطر خالد أن ينزل بقواته على غير ماء ثم قال لجنده « لعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين فحطموا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء » .

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وقتل هرمز وفر جيشه فأمر خالد المثنى بمطاردة الفارين ، وخالد كقائد عسكرى يدرك قيمة المطاردة بالنسبة للجيش المنتصر ، وأيضا بالنسبة للجيش الفار ، ويعلم أن وقعها على الجيش الفار أليم ، اذ يزلزل كيانه ويحطم معنوياته ، ويفقده الثقة فى نفسه وفى قادته ، ومن أجل هذا رأى خالد أن يقوم بالمطاردة رجل قوى عليم بفنون الحرب وأصولها ليستطيع أن يحقق الغرض من المطاردة ولم يجد فى قادته من يرتفع

الى مستوى القوة والحكمة والعلم بشئون الحرب سوى المثنى ابن حارثة ، فأسند اليه هذا الأمر وهو مطمئن الى تنفيذه بالصورة التى يريدها وبالنتيجة التى يهدف اليها .

حصن المرأة ...

أسرع المثنى يلاحق المنهزمين الفارين فى اتجاه المدائن ومر أثناء المطاردة بحصن تقيم فيه أميرة فارسية أطلق عليه مؤرخو العرب اسم حصن المرأة .

رأى المثنى أن انشغاله بهذا الحصن قد يعطله عن هدفه الأساسى وغرضه الرئيسى ، وهو رجل حرب يعلم أن من أهم مبادئها المحافظة على الغرض ، ولهذا ترك مهمة مواجهة الحصن لأخيه المعنى وأمره بمحاصرة الحصن ، ثم تقدم هو فى طريقة ، فقوبل بحصن آخر كان يقيم به زوج الأميرة ، وكان الحصن يعترض طريقه فهاجمه ، وفضه على من فيه وقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم استمر بعد ذلك فى مطاردته للجيش الفار .

ولما علمت الأميرة بما أصاب زوجها صالحت المعنى ، ثم أعلنت اسلامها وعرضت عليه أن يتزوجها فتزوجها [١] .

المذار ...

استطاع الملك أردشير أن يعد جيشا آخر بعد هزيمة هرمز ولى قيادته قارن بن قريانس ، وهو أمير تم تشريفه ، وتقدم الجيش الجديد الى مكان بين البصرة وواسط يسمى المذار ، وهناك التقى

---

(١) الطبرى .

بفلول الجيش المنهزم فجمعها ، وأعاد تنظيمها وضمها الى قواته ، وقال لأفرادها — بعد أن اتخذ له معسكرا فى هذا المكان — « ان افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبدا » ، وكانت القوات الفارة التى ضمت الى قوات قارن بقيادة قباذ وأنوشجان ابنى الملك أردشير .

وبينما المثنى يلاحق القوات الفارة المنهزمة فى كاظمة ، وصلته أنباء الجيش الجديد المتقدم من المدائن ، والذى اتخذ مواقعه فى منطقة المذار ، فقدر موقفه ، ووجد أن قوات عدوه تفوق قواته ، ولكنه فى ذات الوقت أدرك أن عليه دورا كبيرا وهو أن يواجه هذه القوات ويناوشها وأن يشغلها حتى تصل اليه بقية القوات الاسلامية بقيادة خالد ، ولهذا نزل بجنده فى مكان قريب من المذار فى مواجهة أعدائه ثم كتب الى خالد الذى أسرع اليه لملاقاة قوات الفرس ، ووصل خالد فى الوقت المناسب وشد بقواته على الفرس ، وتحول المسلمون الى أسود كاسرة لا تهاب الموت وانما تلقاه باسمة ، ودار قتال عنيف قتل خلاله قارن وقباذ وأنوشجان وأطاحت سيوف المسلمين برءوس الفرس فى كل جانب ، وولت جيوش الفرس الأدبار وقد بلغ عدد قتلاهم ثلاثين ألفا .

معارك أخرى ...

واستمر المثنى فى جهاده الكبير العظيم تحت قيادة خالد ابن الوليد ، فانتقل معه من موقعة الى أخرى ، ومن قتال الى قتال ، لم تضعف روحه ، ولم تهن عزيمته ، وانما ظل متمسكا بمبادئه قويا فى ايمانه عظيما فى قتاله حتى توغل الجيش الاسلامى فى بلاد

الفرس ... فى بانقيا وباروسما والولجة واليس وأمغيشيا والحيرة والانبار وعين التمر وخنافس والحصيد والثنى والبشر والرضاب والفراض ...

القيادة للمثنى ...

لقد أدى المثنى دورا كبيرا خطيرا فى هذه المعارك كلها وكان له فضل فى النتائج التى انتهت اليها حتى ان شاعرا وصف موقفه فى موقعة الانبار فقال ...

وللمثنى بالعال [1] معركة
شاهدها من قبيله بشر
كتيبة أفزعت بوقعتها
كسرى وكاد الايوان ينفطر

لقد قدر خالد له جهده ، وقدّره أيضا أبو بكر الصديق حتى أنه حينما أمر خالد بن الوليد بالتحرك الى الشام لمساعدة الجيوش الاسلامية التى كانت تواجه جيش الروم فى اليرموك أمر بأن يتولى المثنى قيادة الجيش الاسلامى فى العراق ، وكتب الى خالد « دع العراق وأخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه » ، وأبو بكر بذلك يعنى أن يترك قيادة الجيش الاسلامى الى المثنى بن حارثة الشيبانى .

وجاء فى كتاب أبى بكر « امض مخففا فى أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك من الطريق ،

---

(١) يقصد بالعال : الأنبار .

وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة ابن الجراح ومن معه من المسلمين » .

وفى رواية أن أبا بكر أمر خالداً بالخروج فى نصف الناس وأن يخلف على النصف الآخر المثنى ، وقال أبو بكر لخالد « لا تأخذ مجدا الا خلفت لهم مجدا ، فاذا فتح الله عليك فارددهم الى العراق وأنت معهم » وأحضر خالد أصحاب رسول الله واستأثر بهم على المثنى ، ثم قسم الجند نصفين ، فقال المثنى « والله لا أقيم الا على انفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة ، وابقاء النصف أو بعض النصف ، فوالله ما أرجو النصر الا بهم ، فكيف تعرينى منهم ؟ » ... وتشدد المثنى بأصحاب رسول الله له معنى ومغزى ، فهو يعرف الصحابة جيدا ، ويعرف عنهم أنهم صابرون فى الحرب محبون للموت فى سبيل الله أقوياء فى الجلاد ، وفهم خالد ما يقصد اليه المثنى فأرضاه وأعاضه من الصحابة أبطالا مجربين ، وقبل المثنى الوضع الذى أراده خالد ، وخرج فى كتيبة من الجند يشيع خالدا وأصحابه الى تخوم الصحراء حتى قراقر ، ووقف المثنى يودع خالدا واستمع المسلمون جميعا الى قول خالد وهو يسلم القيادة الى المثنى « ارجع رحمك الله الى سلطانك غير مقصر ولا وان » .

ولا شك فى أن هذه الكلمات تحمل كل معانى الرضا والطمأنينة والتشجيع والاعجاب والتقدير .

وهذا الوداع الذى شهدته منطقة قراقر يدل دلالة واضحة

على ما بين القائدين العربيين الكبيرين من التآلف والتواد والثقة والاحترام المتبادل .

وعاد المثنى قائدا للجيش العربى الاسلامى فى أرض العراق.

وبدأت منذ هذه اللحظات أروع صفحات المجـد والبطولة للقائد العربى الهمام .

الباب الرابع

المثنى في العراق
معاركه ... مواقعه ... غزواته

ما أن رأينا أميرا بالعراق مضى
مثل المثنى الذى من آل شيبانا
أن المثنى الأمير القرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

موقعة بابل

المثنى القائد ...

قلنا ان المثنى كان أول من تطلع الى أرض السواد .

وانه بدأ فعلا غاراته وهجماته فى المنطقة ، فلما أحس بالمسئولية الضخمة اتجه الى أبى بكر وعرض عليه أمر فتح العـراق ... واستشار أبو بكر أصحابه فاتفقوا على عرض الأمر على خالد ابن الوليد للوقوف على رأيه بصفته القائد الأول للجيوش الاسلامية . فلما جاء خالد ووضع الأمر موضع التشريح والدراسة والبحث وافق عليه وأيد مطالب المثنى ... ثم استقر الرأى على أن يكون المثنى قائدا للجيش العربى هناك .. ولما اتضحت أهمية العمليات فى هذه المنطقة قرر أبو بكر أن يبعث الى كسرى العراق بسيف الله المسلول ليهد قواه وليزعزع عرشه وليعلى كلمة الله فوق أرض العراق ..

وذهب خالد وخاض المعارك وانتصر فيها كلها وحارب معه المثنى بكل ما كان يتمتع به من روح عربية واخلاص وثقة وأمل ورغبـة .

ثم رأى أبو بكر أن جيوشه فى الشام فى حاجة الى عبقرية خالد وبطولته فقال قولته المشهورة « والله لأنسين الروم وساوس

الشيطان بخالد بن الوليد » .. وأمر بتحركه من العراق الى الشام.

وترك خالد العراق ، وترك من خلفه المثنى بن حارثة على رأس الجيش ..

تقدير الموقف ...

بعد أن ألقيت مقاليد الأمور الى المثنى ، أقام فى الحيرة وجعلها مركزا لقيادة العمليات ودارا لامارته ومقرا لحركاته فأقام بها يعد أمر المعارك القادمة ويهيىء جنده لها ويجمع أصحابه ورجاله ويوحد صفوفه وأخذ كأى قائد عسكرى يبحث الموقف ، ويدرسه ويقدره ووجد أن عليه واجبين ...

الأول : الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون بما بقى لديه من قوات بعد ارتحال خالد ومواجهة الفرس الذين سيبدأون فى التحرش به بمجرد علمهم أن خالدا قد سافر .

الثانى : اتمام الرسالة التى بدأها وهى الدعوة الى الاسلام ونشره فى هذه البقاع ، وخاصة أنه هو الذى دفع أبا بكر الى غزو العراق وهو الذى تقدم خالدا والمسلمين جميعا الى فتحه بالسير الى دلتا النهرين .

وتراءى له الموقف معقدا الى حد كبير بالغا غاية الدقة من حيث انه أصبح يواجه عدوين ...

الأول : البدو المقيمين فى جزيرة العراق الذين بطش بهم خالد فأصبحوا خصوما للمسلمين .

الثانى : الفرس الذين تنبهوا الى أن دولتهم مؤذنة بالزوال اذا ظل لهؤلاء العرب الغزاة فى العراق سلطان .

ولا يفوتنا أن نذكر أن خالد بن الوليد كان قد أحس بهذا الموقف قبل مغادرته أرض العراق الى الشام ، ولهذا أمر بأن ترسل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال الى المدينة .

جيش الأعـــداء ...

حدث فى أثناء التغيير فى القيادة العـــربية أن تعرضت بلاد الفرس لاضطرابات متتالية ، وتولى أمرها ملوك كثيرون ، وكان الفرس يقتلون الملوك الواحد بعد الآخر ، ثم اتفق رأيهم على أن يتولى الأمر شهر زان بن أردشير بن سابور [1] ، فما ان تولى الأمـــر حتى كان اجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه ، ولقد دفعه الى هذا الأمر ظنه أن تغيب خالد عن المعركة سيكون ذا أثر فعال فيفت فى عضد العرب ويوهن قواهم ويضعف عزيمتهم ، ولقد أراد شهر زان أن يستغل الموقف فأعد جيشا من عشرة آلاف مقاتل لمحاربة المثنى ، وعين عليه هرمز جاذويه وأمره بأن يقاتل العرب الى أن يخلص البلاد منهم نهائيا .

وبدأ جيش الفرس فى التحرك متجها الى الحيرة .

التحرك العربى ...

وعلم المثنى بتحرك قوات الفرس فرأى أن يخرج هو الآخر بجنده لملاقاتها .

---

(١)اختلفت الروايات فى اسم كسرى فقيـــل شـــهربازان وشهربازار وشهربراز وشهريران .

وآعاد تنظيم قواته قبل التحرك فجعل آخويه المعنى ومسعود على ميمنته وميسرته ، وتولى هو مكان القيادة فى القلب ..

وعبر الجيش العربى الفرات ووصل بقواته الى بقعة عليها دوارس ناشزة تمثل معالم بابل (١) ، وتبعد عن موطن كسرى وعرينه ٥٠ ميلا ، واحتل هنالك مكانا مرتفعا .

خطاب الفرس ورد المثنى ...

كان واضحا منذ اللحظة الأولى أن جيش الفرس يفوق جيش المثنى فى عدده وفى عدته ، الا أنه كان من الواضح أن جيش المثنى يفوق جيش الفرس فى ايمانه ومعنوياته ورغبته الكبيرة فى احدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد .

ووصلت الى المثنى رسالة من شهرزان يقول فيها « انى قد بعثت اليك جندا من أهل فارس ، وانما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك الا بهم » .

ويبدو فى هذا الكتاب منتهى الصلف والمكابرة والغرور ، كما دل الكتاب على عدم خبرة كاتبه بفنون الحرب وأساليب القتال

(١) يقصد بمعالم بابل الاثار التى شيدها العرب قديما ، وأبدعوا فى صنعها ، حتى أن هيرودوت بالغ فى وصفها وقال انه لا يوجد فى عصرها مدينة تقارن بها ، وقال ان فى كل ناحية من ناحيتى المدينة ما يستحق مزيد الاعجاب ، ففى أحداها بلاط الملك ، وفى الثانية هيكل جسيم للمعبود بعل ، ويحيط بالمدينة سوران ، أحدهما ضمن الآخر ... وقد عظمت بابل حين لقبت بها المملكة وأهلوها ، وفيها سن حمورابى الملك البابلى العربى العظيم شرائعه ووضع قانونه المشهور ... وقد سيطر الفرس عليها وخربوا ربوعها .

فماذا يصنع رعاة الدجاج والخنازير فى ميدان الحرب والقتال ؟ ، وكيف يلتقى هؤلاء بأسد الحرب أبطال النزال والطعن والقتال ؟ ، ان رجال شهرزان عابوا عليه كتابه وأخذوا عليه قوله وقالوا له « جرأت علينا عدونا بالذى كتبت به اليهم ، فاذا كاتبت أحـــدا فاستشر » .

وكان من الواضح أن شهرزان كاذب فيما ادعاه فى كتابه فالمثنى لم يفته ما كان ينطوى عليه الكتاب من التلفيق والكذب والباطل ، لأنه كان يعلم تماما أن جيش الفرس يضم الأساورة والمرازبة والبهلوانية [1] .

ورد المثنى على رسالة شهرزان برسالة قال فيها « من المثنى الى شهرزان .. انما أنت أحد رجلين اما باغ فذلك شر لك وخير لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عنـــد الله وفى الناس الملوك ... وأما الذى يدلنا عليه الرأى فانكم انما اضطررتم اليه ، فالحمد لله الذى رد كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير » .

وعندما تلقى الفرس هذا الكتاب البليغ اهتزت قلوبهم خوفا وجزعوا ، واستولى عليهم اليأس ، وأسقط فى يد الملك الذى لم يكن يتوقع أن تكون فى المسلمين هذه القوة بعد انصراف خالد عنهم الى الشام .

---

(١) المرازبة ... جمع مرزبان وهو والى الثغر .
ومرز ... بمعنى الثغر ، وبان بمعنى الحافظ أو المقيم .
البهلوانية ... جمع بهلوان وهو البطل .

الفيل ...

أقبل هرمز بجيشه يتقدمه فيل ضخم يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، يفرق صفوف المسلمين ويخل بنظامها ، ويوقع الرعب فى المقاتلين ، وتجفل منه خيل العرب .

وبدأ القتال ... ودار عنيفا ... واستمر فى عنفه ...

وأدرك المثنى أنه يجب القضاء على هذا الفيل وأن انتصار جيشه رهن بالقضاء عليه .. فدعا قومه من يخرج منهم معه لقتله .. واستجابت له نخبة من الأبطال الذين باعوا حياتهم لشرف أمتهم ومجد دينهم ، وتقدم المثنى ومعه أصحابه الميامين ، وظل يهاجم الفيل حتى استطاع أن يصيب منه مقتلا فهوى بجسمه الى الأرض صريعا ، وكان قتله ايذانا بالهزيمة ، فما أن شاهدت قوات المسلمين الفيل وقد انهار وصرع ، حتى التأمت صفوفهم واشتد عزمهم وراح عنهم خوفهم وقوى اصرارهم وارتفعت روحهم فأخذوا يهاجمون الفرس هجوما عنيفا لا قبل لهم به حتى هزموهم شر هزيمة ، وولى رعاة الدجاج والخنازير الأدبار ولاذوا بالفرار فأمر المثنى بعض رجاله باحتلال معاقل الفرس ، ثم تبع هو والمسلمون ، الفارين يقتلونهم حتى انتهوا بهم الى أبواب المدائن .

اثر الموقعة ...

اولا ... فى جانب الفرس

نزلت أنباء الهزيمة بشهرزان نزول الصاعقة فأصابته الحمى وثقل عليه المرض فمات ...

ويقول الطبرى « انهزم هرمز وبلغت أخباره مسامع

الملك فاغتم لذلك أشد الغم ثم انه مرض ولم يطل عهده حتى مات » .

وبعد موته تعرضت الفرس لهزات داخلية عنيفة اذ كثرت الاختلافات الداخلية ، ولم يجد أهل الفرس من يولونه الملك بعد شهرزان فولوا بوران بنت كسرى ، ولم تدم طويلا فى الملك اذ خلعت وتولى العرش سابور ابن شهرزان ، وهذا قتل بايعاز من آزر ميدخت ابنة كسرى التى تولت العرش مكانه.. ولابنة كسرى هذه قصة.. فقد أراد سابور أن يزوجها وزيره الفرخزاد فغضبت لأنه ليس من بيت الملك ، وقالت لسابور « أتزوجنى عبدى ؟ » ، فرفض أن يستمع اليها فاتفقت مع أحد فتاك العجم ويدعى ساوخش ، فقتله فى ليلة العرس ، ثم انتقل معها الى حيث سابور فقتله وتولت هى الملك ، فطلب حاكم خراسان الزواج منها فرفضت وقتلته ، وعلم بمقتله ابنه وهو القائد الفارسى رستم فغضب ، وأقبل عليها من خراسان ، وهزم فى طريقه اليها جيوشا تابعة لها ، ثم حاصر المدائن ودخلها وقتل آزرميدخت وساوخش .

وما زال الفرس يولون الملك واحدا بعد الآخر ثم يقتلونهم حتى تولاه يزدجرد [1] فولى أمرهم رستم الذى حارب المسلمين فى القادسية وقتل .

---

(1) يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل أن رستم عين بوران على العرش على أن تملكه عشر حجج ، ثم يكون الملك فى =

ثانيا ... فى جانب العرب

كان انتصار المسلمين ذا وقع عظيم فى البلاد كلها ، فقد صار غربى الفرات كله تحت السيطرة الاسلامية ، وتغنى عبدة بن الطيب السعدى بانتصار المسلمين فقال :

هل حبل خولة بعد البين موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول[1]

وللأحبة أيام تذكرها
وللنوى قبل يوم البين تأويل

حلت خويلة فى حى عهدتهم
دون المدائن فيها الديك والفيل

يقارعون رءوس العجم ضاحية
منهم فوارس لا عزل ولا ميل [2]

وتغنى الفرزدق بالمثنى الذى أظهر بسالة تاريخية فى قتله الفيل ، فقال :

= ال كسرى فى الرجال منهم ان وجدوا ، والا ففى النساء ، استوزرت بوران رستم واطلقت يده فى أمور الدولة ، وجعلته على الجند ، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا .

(١) خولة ... هى زوج عبدة بن الطيب .
البين ... أى البعد .

(٢) لا عزل ... أى معهم سلاحهم .
لا ميل ... اى غير مائلين عن السروج .

فمنهن بيت الحـــوفزان الذى به

تفلل بكر حـــد نبل المناضـــل[1]

وبيت المثنى عاقر الفيـــل عنـــوة

ببـــابل اذ فى فارس ملك بابـــل

---

(1) كان الفرزدق قد عـــدد فى القصيدة بيوت بكر بن وائل

ويعنى بـ منهن أى من بيوتها .

المناضل ... أى المقارع للأعداء

(ديوان الفرزدق ص ١٠٤)

موقعة النمارق

كان انتصار المثنى فى موقعة بابل فتحا لمجال الغزو أمامه فقرر أن يغزو المدائن ، ولكنه وجد نفسه فى حاجة الى امدادات جديدة يقوى بها جيشه ليستطيع أن يتم فتوحه وأن يؤدى رسالته ، وأن يحرس الحدود الواسعة الأطراف التى أصبح مسئولا عن الأمن فيها ، وأن يصون حياة هذا العدد الضئيل من الرجال الذى يحارب تحت امرته ، ولهذا كتب الى أبى بكر ينبئه بأخبار انتصاراته على الفرس ، ويصور له الحالة التى أصبح عليها ، ويستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، وأوضح له أن هؤلاء يطمعون فى مغانم الغزو ، وأنه يرى فيهم حماسا ونشاطا ورغبة صادقة فى محاربة أهل الفرس .

لقاء أبى بكر ووصيته ...

ولما أبطأ عليه جواب الخليفة عيل صبره ، واشتد قلقه وخشى أن يجمع الفرس له جموعا لا يقدر عليها ، وخطوط مواصلاته بعيدة وهم يحاربون فى أرضهم حيث وسائل الامداد والمعيشة متوفرة كثيرة ، فقرر أن يعالج الأمر بنفسه وأن يتصل بالخليفة اتصالا مباشرا فقرر السفر الى المدينة ليلتقى بالخليفة ، وليقدم له الصورة الواضحة المعالم للحالة فى بلاد الفرس .

وترك الجيش تحت قيادة واحد من فرسانه يدعى بشير ابن الخصاصية[1] وغادر البلاد الى المدينة ، فما أن وصلها حتى فوجىء بما لم يكن فى الحسبان فقد وجد أبا بكر طريح الفراش يقاسى من مرضه الأخير ، ورغم أن أبا بكر كان فى شدة والمرض غالب عليه، فقد رأى أبو بكر أن يستقبل قائده فلا يجوز للمرض أن يحول دون اهتمامه بشئون الدولة ، ولا يجوز له وهو فى أشد حالات التعب أن يتخلى عن مسئوليته كخليفة للمسلمين وكمسئول مسئولية ضخمة عن حياتهم وسياستهم وأحوالهم ، وعندما التقى الخليفة والقائد ، حدثه المثنى فى أمر الحملة والمدد ، وأوضح له حقيقة الموقف فى فارس ، ودافع دفاعا مجيدا عن رأيه ، حتى اقتنع الخليفة فبعث فى استدعاء عمر ، وكان قد استخلفه وأوصى الصحابة بمبايعته بعد موته ، فلما جاءه عمر حدثه فى أمر امداد المثنى ، وقال له « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، وانى لأرجو أن أموت فى يومى هذا ، فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وان تأخرت الى الليل ، فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله ، وبالله لو أنى أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا ...

---

(١) هو بشير بن معبد السدوسى .
الخصاصية هى جدته .
بشير ... صحابى .

وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهل الغداوة بهم والجرأة عليهم ».

وهكذا رأى أبو بكر رأيه فيما عرضه عليه المثنى ، ولم يشأ أن يؤخر وصيته فى أمر العراق خوفا من أن يضل من بعده ، ولهذا رسم سياسة الفتح بعد موته ليعمل خليفته فى حدودها .

ومن عجب أن أبا بكر رأى أنه يجب ألا يشغل موته المسلمين عن أمورهم ، فما موته الا حدث لا يرقى الى مستوى مصلحة المسلمين وأوامر الدين التى تدعو الى الجهاد فى سبيل الله ، ولهذا يجب ألا يؤخر موته المسلمين عن القيام بالدور الكبير الذى ألقى على عاتقهم ، وألا يشغلهم عن اتمام العمليات التى تدور رحاها فى العراق وفى الشام ، وهذا أمر لا يستغرب حدوثه من أبى بكر ، فهو قد عاش فترة عصيبة بعد موت الرسول ، ولم يشغله موت الرسول عن مصلحة المسلمين ، أو عن أمر الدين ، وانما حمل الرسالة بعد موت الرسول مباشرة وسوى الخلافات بين المسلمين ، وجهز الجيوش وحارب الردة ، ثم حرك أتباع محمد من الجزيرة العربية الى الشام والعراق ، فكيف يسمح لنفسه اذن أن يشغل موته المسلمين عن رسالة الاسلام العظيمة ، وعن أمور دينهم وحياتهم ومستقبلهم ، لقد رسم الخطوط العريضة لما يجب أن يتبع بعد موته واستنهض بكلامه الى عمر الهمة والحماس ، ودعا الى اتخاذ الخطوات الايجابية الفعالة السريعة لمعاونة المثنى فى حربه ضد الفرس .

ووعد عمر أبا بكر أن ينفذ ارادته وأن يحقق رغبته .
فلما توفاه الله عمل عمر بوصيته فور الوفاة .

الدعوة الى الخروج ...

وما ان تولى عمر الخلافة حتى أصدر أوامره بأن يشترك من أظهر التوبة من أهل الردة فى حرب فارس ويكون بذلك قد وافق على أمر عارض فيه أبو بكر من قبل ورفض اقراره .

ثم كان أول ما قام به فى صبيحة اليوم الثانى لدفن أبى بكر أن ذهب الى فناء مسجد الرسول ورفع راية الجهاد فاجتمع الناس من كل حدب وصوب حتى كثر عددهم ، فتحدث اليهم فى أمر الخروج الى فارس تنفيذا لتعليمات أبى بكر الصديق ، فلم يستجب له أحد فظل على ما فعله حتى اليوم الرابع ، ورأى المثنى أن الناس تخشى الخروج الى فارس لأنها — كما تبين له — أثقل البلاد عليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم ، ولكثرة قهرهم الأمم ، فوقف عندئذ فى الناس خطيبا مهونا الأمر داعيا اياهم الى الاستجابة لمطلب الخليفة ، وقال لهم « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فقد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها [1] » .

ووقف من بعده الخليفة عمر بن الخطاب وخطب فى الناس

(١) تبحبحنا ... أى تمكنا من المقام .
ريف فارس ... أى أرض فارس ذات الزرع والخصب .
شقى السواد ... أى طرف العراق الغربى .

قائلا « أيها الناس ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله الا بذلك ، أين الطراء يهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) ، والله مظهر دينه معز ناصره مولى أهله مواريث الأمم ... أين عباد الله الصالحون » .

وكان أول منتدب هوأبو عبيد بن مسعود الثقفى الذى وقف وسط الناس يوجه الحديث الى عمر قائلا « يا أمير المؤمنين انا سمعناك وأطعناك وأنا أول من أجاب هذه الدعوة ... أنا وقومى وعشيرتى » .

وأحس المسلمون بعظم المهمة وبخطورتها فاندفعوا يعلنون استجابتهم فوقف من بعد أبى عبيد سعد بن عبيد وسليط بن قيس، ثم تتابع القوم حتى أن أحدهم قال للخليفة « يا أمير المؤمنين انما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، وانى قد وهبت نفسى لله ومن أجابنى من بنى عمى ، ومن اتبعنى » .

واستمر التسابق الى الخروج ، واتخذ صورة رائعة جليلة للمشاعر الاسلامية التى تتملك المسلمين حينما يحسون بما ألقته المقادير على أكتافهم من مسئولية وأعباء .

وحينما بلغ عدد الراغبين خمسة آلاف طلب القوم من عمر أن يعين قائدا لهذا المدد على أن يكون أحد كبار الصحابة من المهاجرين أو من الأنصار ، ولكن عمر أبى هذا الشرط ورفضه لأنه يعلم أن الاسلام يسوى بين الناس جميعا عند تولى الوظائف العامة

فلا يتولاها الا الأصلح ، ولا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، وأن الاسلام جعل الناس جميعا على قدم المساواة كأسنان المشط ، ولعل عمر قد تذكر فى هذه اللحظات موقف الرسول الكريم حين ولى زيد بن حارثة قيادة جيش من المسلمين وكان تحت قيادته كبار رجال الاسلام ، ولهذا قال عمر حين رأى الناس يشترطون اسناد القيادة الى واحد من كبار الصحابة « ان من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء أولى بالرياسة » .

ولهذا أمر باستدعاء أبى عبيد بن مسعود ، فعقد له القيادة وزوده بنصحه ، وطلب منه أن يستشير اخوانه وأصحابه فى شئون الحرب والا ينفرد برأيه ، والا يتعجل الأمور فى الحرب ، وأن يحسن معاملة جنده من أصحاب رسول الله .. وكان مما نصحه به أن يستشير سليط بن قيس لجرأته وتجربته ، وكان عمر يثق به كثيرا ، ولهذا قال لأبى عبيد [1] ، « انه لم يمنعنى أن أؤمر سليطا الا سرعته فى الحرب ، وفى التسرع الى الحرب ضياع الا عن بيان ، والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث [2] » .

الموقف فى الحيرة ...

سبق المثنى القوات العربية الى الحيرة ، فقد كان هناك وقت طويل أمام أبى عبيد حتى يعد نفسه ويرتب شئونه وشئون رجاله

---

(١) ذكر البلاذرى أن عمر وجه الكلام الى سليط فقال له « لولا عجلة فيك لوليتك ولكن الحرب زبون لا يصلح لها الا الرجل المكيث » .

(فتوح البلدان ص ٢٥٩)

(٢) المكيث ... أى الرزين الذى يعرف الفرصة .

وقواته ، ولهذا قال عمر للمثنى «النجاء حتى يقدم عليك أصحابك».

وعندما وصل المثنى الى الحيرة ، وجد أن الفرس بعد أن استتبت الأمور فيها واستقرت أحوالها بدأت تنشط من جديد فأعدت جيشين يقودهما رستم ، توجه أحدهما الى الحيرة بقيادة جابان ، والآخر الى أطراف ذى قار فى موقع يسمى كسكر بين الفرات ودجلة بقيادة القائد نرسى .

وكان رستم قد قام بنشاط بعيد المدى فى اثارة مشاعر الفرس ضد المسلمين فدعا الدهاقين الى أن يثوروا بالمسلمين وأشعل روح القتال عند أهالى المدن ، وأثار أهالى الرساتيق [1] ليثيروا القلاقل ضد الجيش الاسلامى ولعله بذلك كان يطمع فى أن يقطع خط الرجعة على قوات المثنى ، وأن يصيب خطوط مواصلاته فيشل حركته ويمنع مرونة قواته .

وعلم رستم فيما علم أن المثنى قد وصل الى قواته وحده وأن جيشا آخر ما زال فى الطريق ، ولهذا فكر فى أن ينتهز الفرس الفرصة فيمحقوا قوات المثنى وحدها قبل أن يصل اليه المدد الذى على الطريق ، وبذلك يستطيع أن ينفرد بالمدد ، ويقضى عليه عند وصوله ، وهكذا يكون قد قضى على القوات الاسلامية قبل أن تتاح لها فرصة اللقاء والتجمع لمواجهته .

رستم ...

ورستم الذى تولى قيادة قوات الفرس هو ابن حاكم خراسان ، وهو أحد رجال الحرب ، كان جريئا طموحا يثير طموحه اعجاب

(١) الرساتيق جمع رستاق أى القرية .

الفرس وتعلقهم به ، وأعجب به المؤرخون ، وذكروا أنه كان عالما بالنجوم ، وأنه رأى فيها مآل فارس ، حتى أنه سئل حينما باح بما رآه كيف يتولى أمر فارس وهو يعلم نهايتها ويرى فيها ما يراه ؟ فأجابهم « الطمع وحب الشرف » .

ولقد أثبتت الأحداث فى مستقبل الأيام صدق ما توقعه رستم فبعد عدة معارك انتهى أمر الفرس فى أرضهم واكتسحت القوات الاسلامية جحافل الفرس وقضت عليها ، واستولت على البلاد كلها ، ولم يعد يعبد فوق بلاد الفرس سوى الله تبارك وتعالى ، وانطوى الناس جميعا تحت راية الاسلام ، ودخلوا فيه عن اطمئنان وايمان وثقة ، وأصبحت بلاد الفرس تمثل رقعة من الدولة الاسلامية المجيدة التى أقامها أتباع محمد بأرواحهم وبدمائهم .

موقف المثنى ...

أحس المثنى بالدور المعنوى الكبير الذى قام به رستم حتى استطاع أن يثير مشاعر أهل العراق وعواطفهم ضد المسلمين ، ووجد أن جنود رستم قد عبئوا معنويا ، وأنه لا قبل لجنده بملاقاتهم ، والفرق بين الجيشين واضح بين ، ولكنه على الرغم من هذا لم يخش الموقف ، وانما درسه عن عمق وفهم جديرين بعقليته العسكرية الجبارة ، وادراكه السليم للموقف الحربى ومتطلباته ولهذا رأى أنه ليس من الحكمة أن يدخل معركة ، وأن يخوض غمارها دون أن يكمل حشده كما رأى أنه من غير الحكمة أن يتوغل فى بلاد عدوه فيطيل خطوط مواصلاته بين مواقع

جنده وبين قاعدته التى يعتمد عليها ، أو بين موقعه الذى يحتله وبين المدد الذى هو على الطريق اليه .

واتنهى تفكيره الى أن يكون أكثر حذرا ، فقرر أن ينسحب من الحيرة الى موضع يسمى خافان حتى لا تفاجئه قوات عدوه فتطعنه من الخلف .

وهكذا آثر المثنى أن يبتعد عن وجه عدوه ، وأن يؤخر لقاءه معه حتى يكمل حشده ، ويتم استعداده للمعركة الفاصلة .

ولكن لماذا اختار المثنى خطة الانسحاب من الحيرة ؟

ان المثنى باتخاذه هذه الخطوة يكون قد ضمن أمرين هامين..

الأول : اختياره ميدان المعركة الذى يراه صالحا لأن يخوض فيه معركة النجاح ، فالموقع الذى انسحب اليه يقع على تخوم الصحراء ، والمثنى جندى عربى وجنوده من العرب الذين عاشوا فى الصحراء ، وقضوا حياتهم بين رمالها وخاضوا غمار حروب كثيرة بين أرضها فى جاهليتهم أو فى اسلامهم ، فهم اذن جند مدربون على القتال فى الصحراء يعرفون أسرارها ، ويعرفون الخطط التى تتبع فيها ويجيدون الكر والفر والهجوم والادبار ، فهم اذن يفوقون فى فن حرب الصحراء عدوهم الذى يعيش فى أرض كلها حقول ونخيل ومبان وجداول وأنهار ، أى أن عدوهم هذا لا يستطيع الحرب فى أرض

مكشوفة ، على حين أنهم يجيدون هم هذه الحرب اجادة فائقة .

اذن فلقاء فوق أرض صحراوية مكشوفة يوحى بأن النصر سيكون فى ركابهم .

الثانى : لو فرض ودارت معركة على تخوم الصحراء ، وكان النصر فى هذه المعركة للفرس فان وجود العرب فى الصحراء يمنحهم العمق الاستراتيجى فى الانسحاب الى الوراء فى الصحراء الواسعة المترامية الأطراف فتقل بذلك خسائرهم ، ويستطيعون أن يعيدوا تنظيم قواتهم وأن يتخذوا من الصحراء نقطة ارتكاز وتجمع يشنون منها الغارات لاستعادة ما فقدوه ، هذا فوق أن الطريق الى القيادة العامة فى المدينة يكون مفتوحا أمامهم يستقبلون منه المدد الذى يقوى من عزمهم ويشد أزرهم ، ويجعلهم أكثر قوة وأشد عزيمة ويهيىء لهم فرص التقدم لملاقاة العدو فى جموع غفيرة ، وأعداد هائلة واستعدادات تضمن النصر وتؤكده .

القيادة لأبى عبيد ...

خرج أبو عبيد من المدينة على رأس خمسة آلاف وفى الطريق انضم اليه كثيرون فانه كان لا يمر بقوم من العرب الا رغبهم فى الجهاد والغنيمة وحثهم على القتال فى سبيل الله .

وانضم اليه أيضا كل من حسن اسلامه من أهل الردة .

وعندما بلغ حدود العراق كان تحت امرته عشرة آلاف مقاتل.

والتقت قواته بقوات المثنى ... وتولى أبو عبيد القيادة .

ومرة أخرى يعود المثنى الى الصفوف الخلفية ، ويختفى من صفوف القيادة ... ولا يؤثر هـذا فى نفسيته أو معنوياته لأنه صاحب رسالة وكل ما يشغله ويأخذ عليه تفكيره ، هو أن تتحقق هذه الرسالة سواء أكان هو فى مكان القيادة ، أم كان جنـديا بسيطا يعمل تحت قيادة غيره ، والمثنى فى هذا استمد احساساته ومشاعره من الدعوة الالهية الكريمة الى الجهاد والبذل فى سبيل الله وفى سبيل الدين ، تماما كما استمد خالد بن الوليد احساساته ومشاعره حين عزله عمر بن الخطاب خلال معركة اليرموك عن قيادة الجند وعين مكانه أبا عبيـدة بن الجراح قائدا لجيـوش المسلمين فى بر الشام فقد ظل خالد يعمل كجندى بسيط تحت امرة أبى عبيدة طوال فتوح الشام ونسى أنه كان القائد الذى يأتمر الكل بأمره ، وينفذ مشيئته ، ولم يعد يذكر سوى أنه جندى عليه الطاعة والجهاد .

اللقـــاء ...

نظم أبو عبيد قواته وجعل المثنى بن حارثة قائدا على الخيل ثم تقدم الى النمارق [1] ليلتقى هناك بقوات جابان ، والتحم الجانبان فى معركة عنيفة دار القتال خلالها شديدا واستمر فترة

---

(١) النمارق .. موقع بين الحيرة والقادسية .

طويلة والمسلمون يقاتلون فى قوة وعنف وثقة وأمل ورغبة فى الانتصار ، وكان لهم ما أرادوا ، فانتصروا انتصارا عزيزا ، ووقع جابان أسيرا فى يد رجل عربى تيمى يدعى مطر بن فضة وكان العربى لا يعرف جابان ، وانما يجهل حقيقته فحاول جابان أن يخدع الرجل فوعده بمال وبغلامين وقال له « انكم معشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمننى وأعطيك غلامين أمردين خفيفين فى عملك وأعطيك كذا ... ، وكذا ... » وأجزل جابان للرجل الوعد ثم قال له « أدخلنى على أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه » ، فأدخله الرجل على أبى عبيد الذى لم يعرفه أيضا ، وأمنه فشهد أبو عبيد على ما تم بينهما .

وتقول بعض المراجع ان مطرا أمن الرجل ثم أطلق سبيله فأخذه بعض المسلمين الى أبى عبيد وأخبروه بأنه دهقان (١) كبير وأشاروا بقتله ولكنه أجابهم « انى أخاف الله أن أقتله ، وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون فى التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم لزم كلهم » ، فغضب بعض المسلمين وقالوا له « انه الملك ، وانه هو الذى غدر بنا وحاربنا » فقال لهم « وان كان قد غدر فأنا لا أغدر » ، ثم أمر بالأسير فترك .

وان ترك جابان واخلاء سبيله وهو بين يدى أعدائه المنتصرين دليل واضح وبرهان ساطع على نفسية العربى التى هذبها الاسلام

---

(١) جاء فى بعض المراجع أنهم قالوا له « أقتله فانه الأمير » ، فقال « وأن كان الأمير فانى لا أقتله وقد امنه رجل من المسلمين .. الى آخر الحديث .

وقومها فجعل المسلمحين يعد يحفظ وعده ، وحين يتعهد يصون عهده ، لا يخون كلمة ، ولا ينقض اتفاقا ، ولا يرجع فى أمر ارتبط به ، وانما يفتدى هذا كله بالروح والدم .. فها هو ذا القائد العربى يملك ناصية عدوه الذى غدر بالمسلمين والذى أثار عليهم البلاد ، والذى جاءهم مقاتلا راغبا فى قتلهم ، وفى ايقاع الهزيمة بهم فيأبى القائد العربى وهو المتحكم فى أمر أسيره أن يمسه ويأبى الا أن يفى بوعد قطعه على نفسه أحد جنوده فيخلى سبيل الأسير وهو بذلك يؤكد مدى التزام القائد بما التزم به جنديه ، ويؤكد فى صـورة عملية واضحة أمانة العربى ووفاءه بالوعد ورجولته وشـهامته .

وغنم المسلمون غنائم كثيرة فقسمها أبو عبيد ، ثم بعث الى الخليفة بالأخماس ، ولقد صور المثنى بن حارثة هذا النصر العظيم فى معركة النمارق فى قوله ...

غلبنا عـلى خفان بيضـا مشـيحة

الى النخلات السمر فوق النمارق[1]

وانا لنرجـو أن تجـول خيـولنا

بشاطى الفرات بالسيوف البوارق[2]

(١) المشيح ... أى المقبل عليك .
(٢) البوارق ... أى اللوامع .

موقعة السقاطية وباروسما

الاعداد للمعركة ..

بلغت أنباء الهزيمة رستم وعرف الفرس ما حل بجابان ، فأمر رستم الجالينوس وهو من صناديد أبطالهم أن يسرع لنصرته ، وأن يلحق نرسى فى كسكر وقرر الجالينوس أن يغذ السير الى مواقع القوات .

وكان المثنى على علم تام ودائم بأخبار الفرس فقد نشر عيونه فى كل مكان تأتيه بأخبار الفرس .. أخبار القوات .. تحركاتها .. اتجاهاتها .. خطتها .. قادتها .. معداتها ..

وجاءته الأنباء أن قوات نرسى فى كسكر ليست كبيرة العدد ولا عظيمة العتاد ، وأن نرسى ينتظر وصول نجدات سريعة اليه تشد من أزره .

وأسرع المثنى يحمل أنباءه هذه وأخباره عن الفرس الى أبى عبيد ويشير عليه بالتحرك السريع وشن الحملة على العدو قبل أن يقوى ساعده ويشتد واستجاب له أبو عبيد وأمر قواته بالتحرك السريع المتصل لمواجهة نرسى فى كسكر .

المعركة ...

وفى مكان يدعى السقاطية [1] التقى أبو عبيد بقوات نرسى وحدها قبل أن تصل اليها قوات الجالينوس .

وكان المثنى على الخيل أيضا .

ودارت المعركة بين الطرفين عنيفة حامية ثبت لها العرب وانهزم الفرس ولاذ قائدهم نرسى بالفرار وترك للمسلمين مغانم كثيرة وخزائن وأموالا وأطعمة ، فاستولى عليها أبو عبيد وبعث الى الخليفة بالخمس ، ووزع على جنده المغانم ومن بينها مقادير عظيمة من الأطعمة ، ويحكى أن المسلمين وجدوا ضمن ما وجدوه من أطعمة لونا من التمر يدعى الترسيان كان ملوك فارس يحبونه، فاقتسموه بينهم وجعلوا يطعمون منه الفلاحين ، وبعثوا بجزء منه الى الخليفة وكتبوا له « ان الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يجمعونها وأحببنا أن تروها ولتذكروا انعام الله وأفضاله » .

وبلغ أبا عبيد أن الجالينوس وصل بجنده الى قرية باروسما فحرك قواته الى هناك وتقابل مع الجالينوس واستطاع أن يهزمه هزيمة مرة ، فلم يملك سوى الفرار من أرض المعركة — تماما كما فر من قبل نرسى — حتى بلغ مع الفارين من جنده المدائن .

المطاردة ...

أمر أبو عبيد قواده بالمطاردة وتعقب الأمراء الفارين ، وتقدم قواده والمثنى فى مقدمتهم فاحتلوا سواد العراق ونشروا الرعب

---

(1) موقع قرب كسكر .
ذكرت فى بعض المراجع السقاطين .

فى الناس وأعادوا الى الأذهان ذكرى انتصارات خالد بن الوليد.

وهكذا تم النصر لأبى عبيد وفى ذلك يقول عاصم بن عمرو ..

صبحنا بالبقايس رهـــط كسرى
صبوحا ليس من خمـــر الســواد
صـــبحناهم بكل فتى كمـــى
وأجـرد ســابح من خيـــل عـاد

وجاء قادة الفرس الى المثنى وعرضوا عليه الطاعة ، وطلبوا منه الذمة عن باروسما ونهر جوبر ، وكان على رأس هؤلاء فروخ وفرونداذ فبعث بهما المثنى الى أبى عبيد الذى صالحهما على شىء معلوم .

القائد العربى وجنده ...

حدث أن جاء فروخ وفرنداذ بآنية فيها بعض الأطعمة الفارسية وقدماها الى أبى عبيد وقالا له « هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك » فسألهما « أأكرمتم الجند وقريتموهم مثلى » فأجـاباه « لم يتيسر لنا ونحن فاعلون » ، فأبى أن يتناول شيئا لم يقدم مثله لجنده فلا حاجة له فيما لا يسعه ويسع جنده ورد اليهـم الآنية دون أن ينال منها شيئا .

وعندما صالح أبو عبيد الاندرزغر فى باروسما جاءه بمثـل ما جاءه به فروخ وفرونداذ فسأل «أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم» فأجابوه « لا » فرده اليهم وقال انه لا حاجة له فيه طالما أن جنده لن ينالوا منه شيئا .

اذن فقد أبى القائد العربى أن ينال شيئا لا يناله جنده .. وهذا

أمر يستحق منا وقفة .. فالقائد العربى صحب قومه من بلادهم .. تركوا أهلهم وأحوالهم ومعيشتهم ، وجاءوا تحت قيادته ليحاربوا من أجل الاسلام .. من أجل الدين .. من أجل العقيدة .. من أجل حياتهم وحياة الناس جميعا .. من أجل مستقبل باسم فاضل مشرق لهم وللانسانية كلها .. وأهرقوا دماءهم ، وبذلوا من ذات أنفسهم، وسمعوا له وأطاعوا ، فكيف اذن ينال شيئا لا ينالونه هم ، وكيف يقدم له شيء فيفوز به دونهم والاسلام قد سوى بينهم فى الجهاد، وجعلهم اخوة متضامنين فى السراء والضراء ، والرسول الكريم قد علم المسلمين الخصال الحميدة والخلق الكريم فلا يستأثر واحد بفيء المسلمين ولا يترفع عن عامة المسلمين ، ولا يسلب مال البلاد التى أحرزها المجاهدون بسيوفهم وأسالوا على جوانبها دماءهم ، والخليفة عمر قد أوصاه أن يرعى جنده وأن يشملهم بالرعاية والعناية .. والقيادة الناجحة لا تبيح للقائد أن يتميز عن جنده حتى لا تتأثر معنوياتهم ، فهم اخوته فى المعركة .. زملاؤه فى القتال .. شركاء له فى الفوز .. يقاسمونه فى الميدان حلو الحياة ومرها .. ويشاركونه خير المعركة وشرها .

وهكذا كان أبو عبيد صورة طيبة لجنده وقدوة صالحة ومثالا عاليا ، قويم مشربه ، مستقيم مذهبه ، يحب المسلمين قدر حبه لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ولا يسيغ شرابا أو طعاما يحرم منه جنده .

بهذه الأخلاق والخصال والمبادىء والمثل انتصر أبو عبيد وانتصر — فى جميع عصور الاسلام — غيره من قادة المسلمين الذين دخلوا الحروب ، وخاضوا المعارك دون أن يغيب عن ذهنهم أنهم يحملون بجانب سيوفهم أرواحا طاهرة ونفوسا نقية وأنهم أصحاب مثل ومبادىء وضمائر وأخلاق .. على هذه الأسس بدأ الاسلام وبها ذاع وانتشر ومن أجلها فاز وانتصر .

موقعة الجسر

قلنا ان رستم كان قائدا صاحب طموح وكبرياء ..

ولهذا هزته الهـزائم المتكررة واندحـار قواته واستسلام قادته الواحد بعد الآخر وعز عليه أن تنهزم جيوش فارس العظيمة أمام هؤلاء العرب الأجلاف فجمع خاصته وقال لهم « أى العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ » فأجابوه « انه ذو الحاجب [1] بهمن [2] جاذويه » فاستدعى رستم بهمن وكان أشد العجم على العرب وعينه قائدا لجيش جديد عظيم العدد وافر العدة ، وضم اليه الجالينوس وقواته وكان رستم قد عنفه لهروبه وهـدده بالموت ان عاد الى ذلك وقال لبهمن « ان عاد لمثل ما فعل فاضرب عنقه » .

راية كسرى ...

وأراد رستم أن يضعف معنويات العرب وأن يقلل ثقتهم فى أنفسهم وأن يزعزع تماسكهم ورباطة جأشهم ، كما أراد فى ذات الوقت أن يرفع معنويات جنده وأن يثير فيهم الرغبة فى القتال وأن يثير حماسهم ..

---

(١) سمى ذو الحاجب لانه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبرا .

(٢) سماه أنوشروان بهمن لتبركه به .

من أجل هذا أصدر أوامره بأن ترفع راية كسرى فى مقدمة الجيش .. وكانت راية كسرى هذه من جلود النمر طولها اثنا عشر ذراعا ، وعرضها ثمانى أذرع وكانت تسمى درفش كابيان ، ولا تحمل أمام الجيش الا لأمر عظيم ..

ولهذه الراية قصة جاءت فى أخبار الفرس ، وملخصها أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته فى الظلم الى حد لا يطاق ، فقام من رعيته يوما رجل حداد خامل بين قومه عظيم فى نفسه ، فخرج من حانوته ورفع على عصا طويلة الجلد الذى يربطه الحداد عادة فى وسطه ونادى فى الناس « من لا يطيق الظلم فليتبعنى » ، فتبعه عامة الناس وقتلوا الملك ورجال دولته وأسس هذا الحداد دولة الكسروية فاتخذ ملوكها راية الحداد شعارا لهم ثم جعلوها من جلود النمور وسموها درفش كابيان ، وكانوا لا يخرجونها — كما سبق القول — الا حين الحاجة القصوى .

مواقع القوات ...

اجتمع تحت قيادة بهمن ثمانون ألفا وعشرون فيلا ، وكان معه الجالينوس وسائر أبطال الفرس ، وتقدم بهذه القوة الهائلة الجبارة فنزل بقس الناطف قرب الكوفة على شاطىء الفرات الشرقى .

وكان أبو عبيد فى السقاطية فرحل منها واتصل بالمثنى فى الحيرة ثم تحركت القوتان والتقتا معا واتخذ الجيش العربى

معسكرا على شاطىء الفرات عند المروحة قرب البرج والعاقول على ضفة النهر المقابل للضفة التى يقع فيها معسكر الفرس .

وهكذا استعد الجانبان ولم يكن يفصل بينهما الا النهر .

الخطأ الأكبر ...

بعث بهمن الى أبى عبيد يسأله أن يعبر أحد الطرفين النهر الى الضفة الأخرى « اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما أن تدعونا نعبر لكم » .

وجمع أبو عبيد أصحابه وعرض عليهم رسالة بهمن ، فأشار عليه أصحابه بعدم العبور ، وأن يدع الفرس يعبرون اليه ، وكان سليط بن قيس أشد الناس الحاحا بعدم العبور ، ولكن أبا عبيد أخذته العزة ، فأبى قبول ما أشاروا به ورفض الأخذ برأيهم واتباع مشورتهم وقال لهم « لا يكون أجرأ على المـوت منا بل نعبر اليهم » وجزع سليط لهذا الرأى وجزع معه أصحابه ورجاله وناشدوه آلا يعبر وأن يبقى فى مكانه لأن فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة الى كرة .. قالوا له « ان العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا وانهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الدهاء والعـدة بما لم يلقنا به أحد ، وقد نزلنا منزلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة الى كرة » .

ولكنه أصر على رأيه وصمم على ما رآه وقال « لا أفعل ، جبنت والله اذن » ، وحاول أن يسخف رأى سليط ووجوه الناس ، ولكن سليطا رد عليه بقوله « أنا والله أجرأ منك نفسا وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم » .

وكان رأى المثنى أيضا من رأى سليط وفى رأيهما السداد وأضاف المثنى أنه اذا كان لابد من العبور فليتم ذلك مفاجأة ، أى مباغتة للفرس فى احدى الليالى دون أن يعلموا بالعبور ، فتكون السيطرة بذلك فى أرض المعركة للعرب البواسل .. ولكن أبا عبيد ضرب برأى المثنى عرض الحائط وأشاح عن هذا الرأى وأبى أن يقبله وأن ينفذ سوى ما رآه .

وهذا التصرف من جانب أبى عبيد تصرف منحرف لا يجوز لقائد مثله أن يقع فيه ، فالعسكريون فى جميع العصور قد اتفقوا على قيام ما يسمى باسم هيئة أركان الحرب ، وهذه الهيئة تضم خبراء من جميع الوحدات المقاتلة لتقديم الرأى والمشورة للقائد ، فيجتمع هؤلاء الخبراء لبحث الموقف ودراسة العوامل وتقرير الخطة التى ترى الأغلبية أنها الأصلح والأوفق والأحسن .

ومبدأ الشورى مبدأ رئيسى هام له أثره الكبير الخطير فى العمليات الحربية ، والاسلام جعل الشورى أساسا هاما لحياة الناس ، والرسول الكريم فى مواقف كثيرة تنازل عن رأيه واستجاب لآراء غيره .. لم يتمسك برأيه فى موقف أبدا .. وانما جعل الرأى للجماعة ، وكان يحاول دائما أن يستخلص ممن حوله من أصحاب الآراء الطيبة والأفكار الصحيحة ، والنظر البعيد ، والفكرة المفيدة والنظرة الصائبة .. وكان الرسول يرى أن رأى الجماعة مهما كان فهو خير من رأى فرد واحد .. ففى غزوة بدر قال الرسول لأصحابه قبل الخروج للغزوة « أشيروا أيها الناس »

فلما أشاروا بالخروج خرج ، وفيها أيضا أبدى الحباب بن المنذر رأيا أعجب به الرســول ، وكان ينتقــد المكان الذى نزل فيه المسلمون اذ قال « ان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزل ثم نعور ما وراءه من القلب ثم نبنى حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا » ، ونزل الرسول عن رأيه ووافق على رأى الحباب وأمر أن ينفذ .

وهكذا كان الرسول دائما .. وكذلك كان من بعده أبو بكر فعندما أراد أن يسير الجيوش الى العراق والشام جمع أصحابه عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح واستشارهم فى الأمر فاستصوبوا رأيه وقالوا « ما رأيت من الرأى فأمضه ، فانا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك » ، وقال له عمر « والله ما استبقنا الى شىء من الخير قط الا سبقتنا اليه .. والله قد أردت لقـاءك بهذا الرأى الذى ذكرت فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد .. سرب الخيل اليهم فى أثر الخيل ، وأبعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فان الله عز وجل ناصر دينه ومقر الاسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » .

اذن فأبو عبيد قد أخطأ خطأ كبيرا حين تجاهل رأى أصحابه الذين وصاه عمر بن الخطاب أن يستمع اليهم وأن يشاورهم فى الأمر وأن يشركهم فى الرأى وأن يقيم لآرائهم وزنها .

ونحن نعجب كيف نسى أبو عبيد قول عمر له « انك تقوم

على أرض المكر والخديعة والخيانة ، تقوم على قوم قد جرءوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه » .

القتال ...

تمسك أبو عبيد برأيه .. ورأى المسلمون أن يسمعوا له ويطيعوا .. وكان عددهم عشرة آلاف .. وبدءوا العبور .. وكان المكان الذى تركه لهم الفرس وراء الجسر ضيقا على كثرتهم .. كان الفرس ينوون شيئا خطيرا فهم كما وصفهم عمر قوم غدارون واتخذوا من الغدر وسيلة لتحقيق مأربهم فشاءوا أن يدخلوا فى معركة حاسمة أعدوا لها العدة ، وتأهبوا فيها للقاء العرب لقاء تكون فيه خاتمتهم ونهايتهم .

وحين كان العرب يعبرون النهر لم يمهلهم بهمن بل أمر جنده أن يحملوا عليهم .. وكان جيشه — كما سبق القول — به عدد كبير من الفيلة عليها جلاجل .. وكانت هذه الفيلة فى المقدمة .. وما أن بدأ الهجوم على قوات المسلمين حتى تقدمت الفيلة وعلا رنين جلاجلها فأجفلت الخيل وخافت وفرت ، ولم يثبت الا القليل على كره ، ورأى أبو عبيد أن صفوفه توشك أن تختل فترجل وترجل جنده وتقدم الجميع صوب جيش الفرس ، وبدأ القتال .

وكانت الفيلة كما قلنا فى مقدمة المهاجمين ، فما كانت تتقدم الى جماعة الا وتدفعهم فيضطربون ويفزعون ، ثم يفرون ، ورأى أبو عبيد الاضطراب الكبير الذى شمل صفوف رجاله فناداهم أن يقطعوا بطن هوادج الفيلة وأن يقلبوا عنها أهلها ، ثم يقتلونهم

واستجاب له رجـاله ، وهاجموا الفيلة وقطعوا بطن الهوادج ، ولم يتركوا فيلا الا قلبوا رحله وقتلوا أصحابه .

وطالت فترة القتال واستمر سجالا بين الفريقين ساعات طويلة من النهـار ، تارة يتقدم المسلمون وينتصرون ، وتارة ينهزمون ، فيتقدم عليهم الفرس.

مقتل أبى عبيد ...

وبينما الحرب على أشدها ، وبينما المقاتلون يتقاتلون فى عنف ، كل يريد أن يلحق الهزيمة بالآخـر كان أبو عبيد على رأس قومه ينظر الى ميدان المعركة وكله رغبة فى النصر ، وأسعده أن يرى رجاله يقاتلون فى شدة وعنف وبطولة ، وأسعده أن يجد الفرس وهم يسقطون من فوق ظهور الفيلة فلا تجد هذه من يقودها .

وبينما كان ينتقل من مكان الى مكان يشجع جنده ويقوى عزائمهم ويدعوهم للصبر فى القتال ، وقع بصره على فيل أبيض كبير على ظهره قبة من الديباج الأحمر يضرب بخرطومه يمنة ويسرة فيشتت المسلمين ويوقع فى صفوفهم ونفوسهم الاضطراب والخوف ، وأيقن أبو عبيـد أن قتل هـذا الفيل سيرفع روح المسلمين ويضعف روح أعدائهم فعزم على قتله ، وأحس أصحابه بخطورة ما عزم عليه فقالوا له « انا نخاف عليك » فقال « ان ربى ينصرنى ولكن أخبرونى هل لهذا الفيل من مقتل ؟ » ، فقالوا له « اذا قطع خرطومه فهو يموت » فقال « انى حامل على هـذا الفيل ومن حوله من الفرس » فقالوا له « دع عنك هذا الفيل

ولك فى غيره سعة » فقال « يا معشر الناس انى لحامل على هذا المخلوق فانظروا ان قتلته وهزمت من حوله فأنا أميركم ، وان قتلت فأخى الحكم أميركم ، فان قتل فولدى وهب أميركم ، فان قتل فولدى مالك ، فان قتل فولدى جبر ، فأبو محجن فالمثنى » (١) .

وتقدم أبو عبيد الى الفيل وحاوره وداوره ، ثم ضرب خرطومه بسيفه ضربة قوية فقطعه وهو يرتجز ..

يالك من ذى أربع ما أكبرك ... يالك فى يوم الوغى ما أنكرك
انى لعال بالحسام مشفرك ... وهالك وفى الهلاك لى درك

وأهاجت الضربة الفيل فاتجه نحو أبى عبيد ثم ضربه برجله وألقاه على الأرض ووقف فوقه وأزهق روحه (٢) ، فأسرع رجل من رجال أبى عبيد وقاتل الفيل حتى تنحى عنه ثم جر جثته الى المسلمين ، وعاد الرجل وكله رغبة فى أن ينتقم من الفيل فيقتله ولكن الفيل فعل معه ما فعله مع أبى عبيد فلحق به الرجل (٣) .

---

(١) أن تعيين أبى عبيد للقادة بعد وفاته يذكرنا بموقف مشابه للرسول الكريم حين بعث بجيش لمحاربة الروم فى مؤتة فقد ولى الرسول زيد بن حارثة القيادة وأمر بأن يتولاها من بعده اذا قتل جعفر بن أبى طالب ، فان قتل فيتولى القيادة من بعده عبد الله ابن رواحه فان قتل اختار المسلمون من بينهم من يتولى قيادتهم وهكذا كان الرسول الكريم أسوة حسنة للمسلمين جميعا .

(٢) قيل فى بعض الروايات ان أبا عبيد قطع خرطوم الفيل بسيفه ، ثم فرق من حوله ولكن تعثر ببعض القتلى فوقع فخبطه الفيل وبرك عليه وقتله .

(٣) ذكر البلاذرى أن هذا الرجل هو أخوه الحكم . ومراجع كثيرة لم تذكر اسمه .

كان أبو عبيد قد أوصى قبل موته -- كما أشرنا — بأن يتولى أخوه الحكم القيادة من بعده ولكن الحكم قتل فأخذ الراية من بعده وهب ، وتقدم الى المعركة منشدا ..

لا خير فى هلا ولا فى ليت   من طلب الموت فهذا الموت
ليس لأمر الله فيك فوت   قد سطع النقع ومات الصوت

وقتل وهب فتقدم أخوه مالك وحمل اللواء واشتبك مع القوم وقتل الكثيرين من الأعداء ثم قتل وهو يردد ..

قد علمت واضحة الترائب   مبأسة بالثغر والحواجب
أنى غداة الروع والتشاغب   أشجع من ذى لبدة مواثب
قتال أقران مخوف الجانب

وقتل فى القتال كثيرون من بنى ثقيف وهى قبيلة أبى عبيد .

وكادت الهزيمة تلحق بالمسلمين وأحس بذلك رجل من ثقيف يدعى عبد الله بن مرثد الثقفى ، فلما رأى الهزيمة جزع وأراد أن يوقف المسلمين الذين اندفعوا هاربين ناحية الجسر ، كما أراد أن يعيد اليهم ثقتهم بأنفسهم فبادر الى الجسر وقطعه وهو يصيح فيهم «أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا ؟[1]».

---

(١) يذكرنا هذا الموقف بموقف طارق بن زياد فى مستقبل أيام المسلمين حين كلف بفتح بلاد الأندلس ورأى ما عليه أعداؤه من القوة والكثرة فى العتاد ، وكان قد عبر بقواته الى أرض الأندلس فأمر بحرق الأسطول حتى يمنع المسلمين من التفكير فى العودة وقال لهم قوله المأثور « العدو من أمامكم ، والبحر من خلفكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر » .

وفى هذه اللحظات ضغط الفرس على المسلمين فانسحب هؤلاء ناحية الجسر وسيوف الفرس تأخذهم من ورائهم ، فلما وجد المسلمون الجسر مقطوعا جزعوا وتواثب كثيرون منهم الى الفرات .. منهم من لم يصبر على الماء فغرق ، ومنهم من نجح فى اجتياز النهر سباحة ، واستطاع البعض أن يفر بالخيل وسط الفرات ، وهلك يومئذ من المسلمين أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق ، وهرب ألفان وبقى ثلاثة آلاف .

وقتل فى هذه المعركة من أبطال المسلمين سليط بن قيس .

وقتل أيضا أبو مخنف أبو زيد الأنصارى وهو أحد جامعى القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قيادة المثنى وبطولته ...

ومرت بالمسلمين ساعات حرج شديدة وكان الموقف عصيبا .. وكان لابد من اجراء سريع يحمى المسلمين ويحفظهم .. ومن كان لهذا الموقف غير المثنى بن حارثة بطل بنى شيبان وفارسها فى موقف تطيش فيه العقول وساعة تهلع فيها القلوب .

لقد رأى المثنى ما لحق بالعرب من نكبات وما هم فيه من شدة فتناول اللواء وتولى القيادة .

وفى سرعة مذهلة قدر المثنى موقفه ووضع خطة لانسحاب قواته من المعركة دون خسائر وكانت خطته تقوم على الأسس التـالية ...

١ — شد الجسر الذى قطعه عبد الله الثقفى ، واعادته الى مكانه حتى يسمح للقوات باستخدامه فى العبور .

٢ — تشكيل قوة ضاربة تقوم بحماية المسلمين ومهاجمة الفرس وتعطيلهم عن متابعة المسلمين أثناء العبور .

٣ — اعادة تنظيم صفوف المسلمين والسماح لهم بعبور الجسر بترتيب وانتظام .

٤ — عبور القوة الضاربة فى النهاية على أن تتولى هذه القوة مهمة منع الفرس من العبور خلف القوات الاسلامية .

٥ — الانسحاب الى الحيرة لاعادة تنظيم القوات من جديد استعدادا لمعارك أخرى قادمة .

ووضع المثنى خطته موضع التنفيذ فأمر بأن يشد الجسر ونادى عروة بن مسعود وقال له « انطلق الى الجسر فقف عليه وحل بين العجم وبينه » ، ثم أمر بتشكيل جماعة من الفرسان وضعها تحت قيادته وأخذ يضرب بها فى وجوه الفرس وهو يصيح فى الناس « يا معشر العرب أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا ولا تفرقوا أنفسكم » ، وجعل يقاتل من ورائهم ويحمى ظهورهم على حين اتجهت القوات العربية الى تنظيم صفوفها وترتيب عبورها للجسر الى الضفة الغربية للفرات .

وبينما المثنى يقاوم هجمات الفرس ويوقفها ويضعف موجاتها جاءته طعنة رمح غاصت لها حلقات درعه فى جنبه وجرح جرحا بليغا ، ولكنه خلال القتال العنيف تناسى هذا الجرح ولم يهتم بالألم الذى ألم به وظل يناضل فى شجاعة وبطولة حتى عبر المسلمون جميعا الجسر ، ثم عبره هو فى النهاية وظل بعد عبوره

يقاوم الفرس ويمنعهم من العبور خلفه المسلمين ، ولم يزحزحه عن هدفه وتنفيذ خطته هذا الجرح البالغ الذى أصابه .

وهكذا أنقذ المثنى ببطولته النادرة الجيش العربى من مخالب الفرس وحرص على أن يمنع الدم العربى من أن يسفكه الفرس .

وما ان نجحت القوات العربية فى عبور النهر — حتى أمر المثنى بالانسحاب فورا الى الحيرة ، ثم تابع انحداره الى الجنوب حتى أليس ومنعت ظروف خاصة قوات ذى الحاجب من متابعته فقد بلغه أن خلافا خطيرا قد وقع بين الفرس ، وأنهم قد انقسموا فرقتين احداهما تؤيد رستم وتناصره والأخرى مع الفيرزان تناصب رستم العداء ، ولهذا رأى ذو الحاجب أن يعود الى المدائن ، وأن يترك خلفه جابان ومردنشاه فى كثير من الجند وأمرهما بمطاردة المثنى فتبعاه أملا فى القضاء عليه .

بطولة نصرانى ...

ولا يفوتنا أن نذكر موقفا لأبى زبيد الطائى وكان نصرانيا[1] فقد كان قادما الى الحيرة فى بعض شئونه ورأى ما أصاب العرب فتحركت فيه دماؤه العربية ومشاعره القومية وهاجت فيه قوميته فعز عليه أن ينهزم قومه ، وأن يكتب النصر لقوم يختلفون عنه لغة ودينا وتاريخا وقومية ومسكنا ودما ، فانحاز الى جانب المثنى يقاتل مع العرب قتالا جبارا ، ولقد شجع موقفه هذا قوما من

(١) أسمه بالكامل حرصلة بن المنذر الطائى ويكنى أبا زبيد وهو شاعر نصرانى عمر طويلا ومات فى خلافة عثمان بن عفان وهو على نصرانيته .

نصارى النمر ونصارى بنى تغلب فخفوا لمعاونة المثنى بعد هذه المعركة فى معركة البويب ، وكان لهم دور كبير فيها .

القضاء على المطاردين ...

عندما وصل المثنى الى أليس أبلغه أهلها نبأ الخلاف الكبير الذى نشأ بين الفرس فنظم صفوفه فى سرعة وجمع رجاله ورتب قواته وانضم اليه عدد كبير من أهالى أليس وتحرك منها لمقابلة القوات التى جاءت وراءه لمطاردته ، وعندما التقى بها دار قتال عنيف واستطاع المثنى أن يوقع بهذه القوات الهزيمة واستطاع أيضا أن يأسر القائدين الفارسيين جابان ومردانشاه ، ثم أمر فضربت أعناقهما (١) .

عمر وانباء الهزيمة ...

كتب المثنى الى عمر بن الخطاب ينبئه بما حدث للمسلمين فى غزوة الجسر ، وذكرت بعض المصادر أن عبد الله بن زيد وكان قد شهد الجسر كان أول من قدم الى المدينة من المسلمين ، بعث به المثنى فجد السير فى الفلوات ، ونهب الأرض نهبا على راحلته حتى وصل المدينة ودخل المسجد حيث كان الخليفة عمر بن الخطاب فأنشد ونفسه تهتز من الألم والحزن وهو يكاد يبكى ..

---

(١) سبقت الاشارة الى أن جابان هذا وقع اسيرا فى أيدى المسلمين فى موقعة النمارق وأنه استأمن آسره فأمنه ثم غدر ورجع يقاتل المسلمين ويخفر ذمتهم فلما وقع أسيرا فى أيديهم كان لابد من قتله .

نعيت الى أهـــل المدينـة فتيـة
عـلى مثلهم تبكى النساء الكواعب
نعيت الى الأنصــار فتايتها التى
بها كانت الأحيــاء طرا تحـارب

وكان عمر حتى وصول عبد الله فى لهفة من أمر مقاتلة العرب حتى أنه كان يخرج الى ضواحى المدينة كل يوم يتنسم أخبـار القتال من القادمين من العراق وكان يعود الى المدينة حزينا قلقا كلما فشل فى الحصول على أخبار القتال الدائر وعندما دخل عليه عبد الله ، وأخذ ينشد شعره قاطعه وسأله « ما عندك يا عبد الله ؟ ، أخبرنى بأمر الجيش » ، فألقى عليه الخبر وقال « يا أمير المؤمنين أنعى اليك أبا عبيد وأولاده فلان وفلان وفلان ، وأنعى اليك .. » فسأله الخليفة « فالمثنى ؟ » فقال « تركته جريحا » ، وتلقى عمر الخبر ساكنا دون أن يبدو عليه الجزع [1] .

وعاد الى المدينة كثير من هؤلاء الذين فروا من المعـركة ودخلوها منكسى الرؤوس خزيا وعارا .

ونزل بعض منهم البوادى خشية أن يلقوا أهلهم فيعيروهم .

ورأى عمر حال هؤلاء وهؤلاء فرق لهم ورحمهم وجعل يدفع عنهم برم الناس بهم وسخطهم عليهم ، وظل يقول « اللهم كل مسلم فى حل منى ، أنا فئة كل مسلم من لقى العدو ففظع بشىء

---

(١) ذكرت بعض المراجع أن عمر بكى وأن الناس من حـــوله ضجوا بالبكاء فى جنبات المسجد .

من أمره فأنا له فئة ، يا معشر المسلمين لا تجزعوا أنا فئتكم والما انحزتم الى ، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز الى لكنت له فئة » .

وسمع عمر أن معاذ القارىء أحد بنى النجار وهو ممن فروا الى الجسر كان يبكى كلما قرأ قوله تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » [1] ، فكان يقول له « لا تبك ، أنا فئتك وانما انحزت الى » .

وهكذا خفف عمر روع الناس ودفع جزعهم وكان بالمؤمنين رحيما عطوفا بارا .

الجسر ومؤتة ..

وقعت غزوة مؤتة فى عهد الرسول الكريم فى السنة الثامنة للهجرة .

ووقعت موقعة الجسر فى عهد عمر بن الخطاب فى السنة الثالثة عشرة للهجرة .

وبين الموقعتين تشابه كبير عجيب نوضحه فى النقاط الآتية ...

١ — قابل الجيش الاسلامى فى الموقعتين عدوا يفوقه عددا وعدة .

٢ — نظمت قيادة المسلمين فى الموقعتين مسألة تولى القيادة فى حالة استشهاد القائد العام .

٣ — بعد استشهاد القادة فى مؤتة تولى خالد بن الوليد

---

(١) سورة الانفال ١٦ .

القيادة وبعد استشهاد القادة فى الجسر تولى المثنى القيادة . ولولا فعال خالد والمثنى لظلت مؤتة والجسر نقطتى عار فى جبين المسلمين لانسحابهم وفرارهم وهزيمتهم .

٤ — كانت الخطة التى وضعها خالد والمثنى فى الموقعتين هى الانسحاب من أرض المعركة بأقل خسائر .

٥ — كانت خطة الانسحاب فى الموقعتين تقوم على أساس تشكيل قوة ضاربة تحمى ظهر القوات المنسحبة وتمنع العدو من متابعة المنسحبين .

٦ — قوبل الناس بعد الموقعتين باستياء شديد من جانب المسلمين فى المدينة ، وخفف الرسول من أثر الهزيمة عند مقاتلى مؤتة ، وخفف عمر من أثرها عند مقاتلى الجسر ، ففى مؤتة كان الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون « يا فرار .. يا فرار .. فررتم فى سبيل الله » ، وكان المقاتلون العائدون يتوارون ولا يحضرون الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمعوا هذا القول فكان الرسول يقول عنهم « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله » .

موقعة البويب

الحشد العربي ...

بعث المثنى عقب هزيمة الجسر الى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه أن يمده بعون سريع ومدد عاجل ولم ينتظر المثنى المدد فهو يعرف أن مجيء الجند من المدينة يقتضى زمنا قد يواثبه الفرس فيه .

وكان لابد له من مواجهة الموقف بما عنده من جند ، وبما لديه من طاقات حتى يواجه النكبة بما عرف عنه من دقة القائد الصبور المحنك .

وأول خطوة اتخذها المثنى فى هذا المجال هى أنه بعث فيمن يليه من قبائل العرب فجاءته وفود عظيمة وتوافدت عليه جموع ضخمة بينهم نصارى بنى النمر الذين رأوا أن يقاتلوا مع قومهم ، وكان على رأسهم أنس بن هلال النمرى ، كما جاءه عدد غفير من نصارى تغلب ، وعلى رأسهم عبد الله بن كليب الثعلبى المعروف بمردى الفهر ، وهكذا اجتمعت وفود النصارى مع اخوانهم العرب ليشتركوا معا فى معركة واحدة ضد عدو واحد للعرب ، رغبة فى اعلاء كلمة القومية وانتصار العرب مسلمين كانوا أو نصارى على أعدائهم .

وكانت الخطوة التالية للمثنى هى أنه نقل معسكره من أليس

الى مرج السباخ بين القادسية وخفان ليكون بذلك قريبا من تخوم العرب فيستطيع أن يلجأ اليهم اذا غلبه الفرس وأن يجد عندهم المدد اذا تم له النصر ..

وفى ذات الوقت كان عمر بن الخطاب يفكر فى أمر القـوات المرابطة فى العراق .. كان يبحث أمر امدادها بحثا عميقا وسريعا حتى تستطيع هـذه القـوات أن تواجه الموقف الدقيق الذى يحيط بها ..

وكان العرب حتى هذه اللحظة يتوافدون على المدينة استجابة لدعوة عمر للخروج ولكنهم كانوا يتهيبون الخروج الى العراق ويفضلون الخروج الى بلاد الشام وبذل عمر جهدا كبيرا حتى استطاع أن يقنع الناس بالتوجه الى العراق بدلا من الشام ، وحدث أن اجتمع بنو بجيلة [1] فقال عمر لجرير بن عبد الله البجلى « أخرج حتى تلحق بالمثنى » ، فقال له جرير « بل الشام فان أسلافنا فيها » فقال له عمر « بل العراق فان الشام فى كفاية » وعرض عمر على جرير وقومه الربع من خمس ما يفىء الله على

---

(١) كان بنو بجيلة متفرقين مشتتين فى قبائل العرب ، وطلب جـرير من أبى بكر فى خلافته أن يجمع بنى بجيلة فرده أبو بكر وقال له « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بازائهم من الأسدين فارس والروم ثم أنت تكلفنى التشاغل بما لا يغنى عما هو أرضى لله ورسوله دعنى وسر نحو خالـد بن الوليد حتى أنظر ما يحـكم الله فى هذين الوجهين » . ولما قضى أبو بكر وتولى عمر الخلافة من بعده أعاد جرير طلبه فكتب عمر الى عماله فجمعوا بنى بجيلة فى صعيد واحد .

المسلمين يضاف الى نصيبهم من الفيء[1] فقبل جرير وولاه عمر قيادة قومه وكانت عدتهم سبعمائة فارس .

وتبعتهم جموع كثيرة كانت مترددة أيضا اذ كانت تفضل الخروج الى الشام دون العراق فاجتمع بهم عمر وقال لهم « ذلك أمر قد كفيتموه فاستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش لعل الله أن يورثكم قسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس » فقال غالب بن عبد الله ، وعرفجة بن هرثمة مخاطبين قومهما « يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين الى ما يرى وأمعنوا له » ، فأجابوا وخرجوا مع الخارجين من بني بجيلة .

وخرجت معهم أيضا جموع الفارين من غزوة الجسر ، فقد طلبوا أن يعودوا من جديد الى الميدان ليزيلوا عن أنفسهم وصمة الهزيمة فى الجسر ..

وخرج أيضا بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثمة ، وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد الله ، وبنو حنظلة وعليهم ربعى ، وبنو ضبة وعليهم عصمة بن عبد الله الضبى ، وعدد كبير ممن ظهرت توبتهم من أهل الردة [2] ، وخلق كثير من مختلف القبائل ، وصحب الخارجون معهم نساءهم وأبناءهم .

---

(١) حدث داوود بن أبى هند قال : اخبرنى الشعبى أن عمر وجه جرير بن عبد الله الى الكوفة بعد قتل أبى عبيد أول من وجه وقال : هل لك فى العراق وأنفلك الثلث بعد الخمس ، قال : نعم .

(٢) كتب عمر الى أهل الردة من بنى عبد القيس وغيرها ممن لم يكن يسمح لهم بالجهاد أن يخرجوا الى العراق فسارت جموع كثيرة منهم .

والتفت هذه الجموع كلها مع قوات المثنى الذى ما ان علم بتجمعات الفرس وتحركاتهم اليه حتى بعث الى جرير بن عبد الله والى غيره من الأمراء قائلا « انا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب [1] .

موقف الفرس ...

بلغت الفرس أنباء التجمعات الاسلامية وترامت اليهم أخبار الامداد التى تسير تباعا الى العراق وهالتهم هذه الجموع التى أصبحت فى الجانب الاسلامى وأحسوا بخطورتها فعقد رستم اجتماعا مع الفيرزان واتفقا على تقسيم السلطة بينهما وجمعا معا جندا عظيما كثيفا جعلا عليه القائد مهران بن مهرنبداذ الهمذانى وكلفاه بأن يتقدم بقواته الى مواقع المسلمين ، وأمداه بعدد من الفيلة ، وجدير بالذكر أن الملكة بوران وافقت على رأى الاثنين وباركته .

ويهمنا أن نذكر أن مهران الهمذانى قائد الفرس الجديد كان طموحا حريصا على أن يحرز ضد العرب نصرا ينسى الفرس النصر الذى أحرزه ذو الحاجب فى الجسر والذى كانوا يعيشون فى ذكراه وهو بذلك كان يريد أن يقفز الى مكان الصدارة بين قادة

---

(١) هو الموضع الذى بنيت فيه الكوفة بعدئذ .

الفرس وأن يسجل لنفسه صفحات بيضاء خالدة تفـوق تلك الصفحات التى كتبها لنفسه ذو الحاجب .

وتقدم مهران بقواته وجموعه التى بلغ عددها اثنى عشر ألفا حتى نزل بازاء المثنى من وراء الفرات فى أرض تدعى بسوس قرب الكوفة ، وما ان علم المثنى بنزوله فى هذا الموقع حتى قال « أكد مهران وهلك ونزل منزلا هو البسوس » .

الاعداد للمعركة ..

عندما أصبح العرب والفرس وجها لوجه لا يفصل بينهما سوى نهر الفرات بعث مهران الى المثنى يقول « اما أن تعبروا الينـا واما أن نعبر اليكم » وتنبه المسلمون فى هذه المرة الى خطورة العبور وعادت الى ذاكرتهم معركة الجسر حين أبى أبو عبيـد الا أن يعبر الى الفرس ليؤكد شجاعته وقوته ، وأدرك المسلمون أن عبورهم كان من عوامل الهزيمة المرة التى وقعت بهم ، ولهذا فعندما بعث اليهم مهران بمثل ما بعث به من قبل ذو الحاجب كان ردهم واضحا صريحا « أعبروا الينا » .

ووافق مهران على أن يعبر بقواته ..

وعبرت قواته فى ثلاث صفوف مع كل صف فيل ، وكان لها عند عبورها صوت وضوضاء فقال المثنى لجنده « أن هذا الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت وأتمروا همسا » وأعد المثنى قواته فجعل على مجنبتيه بشير بن الخصاصية وبسر بن أبى رهم[1]

---

(١) فى بعض المراجع ذكر بشر .

وعلى مجردته (أى الخيـل) أخاه المعنى ، وعلى الرجل (أى المشاة) أخاه مسعود ، وعلى الطلائع (أى المقدمة) النسير ، وعلى الردء أى (الاحتياط والعون) مذعورا ، وبقى هو فى القلب من جيشه .

وبعد أن تم الاعداد المادى للمعركة أخذ المثنى يعـد رجاله معنويا فكان يتعهد الصفوف ويعد لها للمعركة ، وحدث أن رأى أحد رجاله يتقدم صفه مندفعا نحو الفرس فقرعه بالرمح وقال له « لا أبالك ! الزم موقفك فاذا أتاك قرنك فأغنه عن صـاحبك ولا تستقتل » .

وقد كان المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويمر بينهم عـلى فرسه الشموس [1] ويحضهم [2] فيقول لهم « أنى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم قبلكم والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء الا وهو يسرنى لعامتكم » فيجيبونه بمثل ذلك .

وظل المثنى يذكر جنوده بالحروب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ، ويعرفهم بمواقع الشجعان ومصارع الفرسان ، وما وعد الله للشهداء المجاهدين من ثواب فى دار النعيم ، وبالرغم من أنه كان جريحا فانه كان يمر بالقوات باذلا الجهد غير آبه بحياته ولا عابىء بجراحه ينشط الهمم ويقوى العزائم ويشد نفوس أهل الحرب ويحرض المؤمنين على القتال .

---

(١) دعى الشموس للين عريكته وطهـاراته ، وكان لا يركبه الا اذا قاتل ، فاذا فرغ من القتال ودعه .

(٢) أى يحثهم .

وكان المثنى صاحب منزلة طيبة عند رجاله فقد كانوا يحبونه ويحترمونه ويبجلون فيه قوته وبطولته وشرفه وعلو منزلته .

القتــــال ...

كان وقت بدء المعركة فى شهر رمضان ، فأمر المثنى جيشه بالافطار ليقووا على عدوهم وحتى لا يؤثر الصيام على قدراتهم فى القتال ، فنادى المسلمين « أيها الناس أنكم صوام والصوم مرقة ومضعفة ، وأنى أرى من الرأى أن تفطروا فتقووا بالطعام على عدوكم » ، ورأى النـــاس جميعا رأيه فأجـــابوه الى ما طلب وأفطروا .

حدد المثنى ساعة الصفر مع رجاله واتفق معهم على أن تكون عندما يكبر للمرة الرابعة « أنى مكبر ثلاثا فتهيأوا ثم أحملوا مع الرابعة » ، وعندما حان ميعاد الهجوم كبر المثنى وكبر من بعده المسلمون وأدرك الفرس أن العرب على وشك الهجوم فقرروا أن تكون المبادأة فى جانبهم ، ولهذا رأوا أن يبدءوا هم بالهجوم ، وما أن صاح المثنى للمرة الرابعة « الله أكبر » ، حتى عاجلهـــم الفرس وهاجموا صفوف المسلمين وخالطوهم والتحم القتال .

ولم ينس المثنى واجبه كقائد خلال المعركة فقد كان يشرف على سيرها وتطوراتها ويراقب صفوف المسلمين ويمر بينهم ويثير حماسهم ، وينظم ما اختل من نظامهم ، فكان اذا ما رأى خللا فى احدى الجبهات يرسل لأهل هذه الجبهة رجلا من عنـــده يقول لهم عن لسانه « ان الأمير يقرئكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا

المسلمين اليوم » فيقولون « نعم » [1] ، ويعتدلون ، وكان المثنى اذا نظر موطن ضعف من الفرس قابلا للعطب وجه اليه ضربة قاضية .

وطال الاشتباك وازداد عنفا ورأى المثنى أن يضرب ضربة قاصمة فنظر الى نفر من التغلبيين نصارى وفيهم جلاب خيل قدموا مع أنس بن هلال النمرى وقال لأنس « يا أنس انك امرؤ عربى ، وان لم تكن على ديننا فاذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » ، فأجابه أنس الى ذلك وقال المثنى مثل ذلك أيضا لأبى مردى الفهر فأجابه اليه وحمل المثنى على الفرس وحمل معه أنس بن هلال ومردى الفهر وهاجموا مهران ودخل المثنى فى ميمنته[2] فاضطربت صفوف الأعاجم والتقى خلال هذا الاضطراب الذى سيطر على الفرس فى أرض المعركة غلام نصرانى من تغلب بمهران فأثارته العصبية فقتله ، ثم استوى على فرسه وهو يقول :

أنا الغـــلام التغلبى   أنا قتلت مهـــران [3]

وعلم الفرس بمقتل قائدهم مهران فتضعضعوا وانهزموا وأدرك المثنى أن الفرس سيذهبون الى الجسر للعبور الى الضفة الأخرى للنهر هربا من هجمات المسلمين فأسرع الى هناك وقطعه ومنع

---

(١) ذكرت بعض المراجع انه رأى خللا فى صفوف بنى عجل فبعث اليهم من قال قوله الذى ذكرناه .

(٢) قالت بعض المراجع انه اندفع بفرسه الشموس ورمحه بين أذنيها وقصد مهران حتى أزاله ودخل ميمنته .

(٣) فى رواية أخرى ...

أنا الغلام التغلبى ... انا قتلت المرزبان

ذلك مرورهم من فوقه [1] والسيوف تأخذهم من كل جانب والمسلمون يحيطون بهم والمثنى وسطهم يدعوهم للقتال ويحميهم ويقول لهم « عاداتكم من أمثالكم انصروا الله ينصركم » ، وقد بلغ حماس المسلمين ، واستطاعوا أن يحرزوا نصرا عظيما فى هذه المعركة كما استطاعوا أن يمحوا ذكرى الهزيمة المرة التى لحقت بهم من قبل فى الجسر .

وحدث عند اشتداد القتال أن جرح مسعود أخو المثنى فتضعضع من معه فقال وهو يتلوى من ألم الضربة « يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعى » ، وكان قبل أن يصاب قد قال لهم « ان رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه فان الجيش ينكشف ثم ينصرف .. الزموا مصافكم واغنوا غناء من يليكم » .

ولما مات مسعود وبلغ المثنى قتل أخيه صاح فى الناس « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى فان مصارع خياركم هكذا » ، ووقعت كلماته موقعا حسنا فى قلوب المقاتلين وشدت من معنوياتهم وحرضتهم على عدوهم فحملوا حملة رجل واحد

(١) حدث أن الفرس الذين ارتدوا عن الجسر أخذوا يقتلون من المسلمين ويستميتون يريدون الثأر منهم فمات كثير من المسلمين ، فأغضب ذلك المثنى وندم لقطعه الجسر ولمنعه الفرس من العبور وقال لقومه فى ذلك « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى اياهم الى الجسرحتى أحرجتهم فانى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس ، فأنها كانت منى زلة لا ينبغى احراج أحد الا من يقوى على امتناع » .

وصدقوا الله فى القتال حتى سمى يوم البويب يوم الاعشار لأنهم أحصوا مائة رجل من العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس فى المعركة وقيل أن عدد القتلى من الفرس بلغ مائة ألف ، وبقيت جثثهم صرعى طريحة فى الميدان حتى بليت وصارت عظاما ثم بقيت دهرا طويلا لم تدفن الا بعد بناء الكوفة ثم عفا عليهم التراب أزمان الفتنة وقيل ان أهـل تلك الناحية كانوا يأتون البويب فيرون فيما بين موضع أسكون وبنى سليم عظاما بيضا تلولا تلوح من هامهم وأوصالهم يعثر بها [1] ، واستشهد فى هذه المعركة من المسلمين خالد بن هلال ومسعود بن حارثة أخو المثنى وغيرهم من أبطال المسلمين فصلى عليهم المثنى وقال « انه ليهون على وجدى أن شهدوا البويب أقدموا وصبروا ، ولم يجزعوا ولم ينكلوا » .

بعد المعركة ...

بعد أن فر الفرس من المعركة انتدب المثنى جرير بن عبد الله البجلى لعبور الفرات ولتتبع الفارين وانتدب معه من شهدوا واقعة الجسر ، لأنهم كانوا أشد الناس بلاء فى هذه المعركة لاستيائهم من الفرار فى تلك الموقعة فغنم هؤلاء مغانم كثيرة وعادوا الى مواقعهم .

وبعد أن انتهى المثنى من هذه الغزوة فرق جنده فى السواد وأخذ يستخضع البلاد التى عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة.

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه جـ ١ ص ٣٤٤ .

مع العرب ظفر منها المسلمون بما شاءوا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالا الى الجزيرة فأوقعوا الرعب فى قلوب الأعداء ، واضطرب أمر الفرس لذلك واختل وبعث القواد والرؤساء من المسلمين الى المثنى « ان الله سلم ووجه لنا ما رأيت ، وليس دون القوم شىء فتأذن لنا فى الاقدام » ، فأذن لهم المثنى فانطلقوا فى السواد حتى بلغوا ساباط وجيوش الفرس تفر أمامهم فرار النعام ، وانطلق المثنى بدوره فغزا الخنافس والأنبار وغنم منها الكثير ثم بلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد وتكريت ..

وأخيرا استقر المثنى فى الحيرة بعد ان استتب له الأمر وفى هذا يقول الطبرى « لما أهلك الله مهران استمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة فمخروها لا يخافون كيدا ولا يلقون فيها مانعا » .

منطق الابطال ..

بعد أن انتهت معركة البويب اجتمع المسلمون بعد فراغهم منها مغتبطين يتسامرون فقال المثنى « قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية والاسلام ، والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد علىّ من ألف من العرب ولمائة من العرب اليوم أشد علىّ من ألف من العجم .. ان الله أذهب بأسهم ووهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء ترونه ولا سواد ولا قسّى فج ولا نبال طوال فانهم اذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » .

شعر المعركة ..

شهد الناس للمثنى بالبراعة والشجاعة والقيادة والبسالة والحنكة والقدرة ، وتغنى بهذه الصفات كلها الشعراء ومجدوا أفعاله ، وعظموه فيما نظموه ، ومن ذلك ما أنشده عروة بن زيد الخيل [1] ...

هاجت لعروة دار الحى أحـــزانا
واستبدلت بعد عبـد القيس همدانا
وقد أرانا بهـا والشمل مجتمـع
اذ بالنخيلة [2] قتلى جنـد مهرانا
أيام سـار المثنى بالجنـود لهم
فقتل القوم من رجـل وركبـانا
سـما لأجنـاد مهـران وشـيعته
حتى أبادهم مثنى ووحـــدانا
ما ان رأينا أميرا بالعـراق مضى
مثـل المثنى الذى من آل شـيبانا
ان المثنى الأمـير القـرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفـانا

---

(١) هو عروة بن زيد الخيل الطائى صحابى مشهور شهد مع أبيه فى الجاهلية بعض الحروب وعاش الى خلافة الامام على وشهد معه صفين .

(٢) مكان قرب البويب .

النساء فى المعركة ..

قلنا ان المثنى أصاب فى البويب مغانم كثيرة .. غنما ودقيقا وبقرا .. فبعث بها الى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس وعلى تخوم شبه الجزيرة وبالحيرة .

وكان دليل من ذهب بنصيب العيالات بالقوادس عمرو ابن عبد المسيح بن بقيلة فلما رأت النسوة اقبال الخيل عليهن تصايحن وحسبنها غارة عليهن فقمن ومعهن الصبيان بالحجارة والعمد ، فانشرح صدر عمرو لهذا التصرف من جانب النسوة وقال « هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش » .

واستأمن الرجال النساء وبشروهن بالفتح وقدموا لهن ما حملوه اليهن وقالوا « هذا أول المغنم » .

وكان النسير على الخيل التى أتتهم فأقام فى خيله حامية لهم .

ولنا هنا وقفة فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهم وامكان دفعهن العدو المفاجىء لما تركوهن فى الفلاة بلا حامية وتقدموا هم لحرب الفرس .. وموقف النساء موقف بطولى تاريخى .. فنساء المسلمين كن يقاسمن الرجال فى ميدان الحرب ويساعدن قدر استطاعتهن ، ومن أهم ما كن يقمن به من أعمال ...

١ — يضمدن الجراح ويمرضن المرضى ويعالجن الجرحى .

٢ — يساعدن على رفع الروح المعنوية للمقاتلين ويشجعن المحاربين بالزغاريد والأناشيد .

٣ — يقمن بوظائف الشئون الادارية .. يحضرن الماء ويقدمن الطعام .

٤ — يثرن حمية الرجال للدفاع عن الأعراض وللغيرة على الحــرم .

وبرغم هذا فقد تطور دورهن فى المعركة وخرج عن هــذه الحدود .. أصبحن يحملن السلاح ويخضن المعركة ويحاربن بجانب الرجال ويقاسمن المحاربين شرف الجهاد والاستشهاد .

ولم يكن حجاب المرأة المسلمة مانعا لها من مخالطة الرجال فقد كن يتميزن بالعفة وسلامة الأخلاق وطهارة النفس وحسن التربية وغيرها من الصفات التى كانت تقوم مقام الحجاب تماما ؛ ولهذا خرجت المرأة المسلمة من بيتها تصاحب رجلها فى جهــاده ونضاله وتعاونه معاونة صادقة خالصة لوجه الله والدين ووقفت بجانبه تشد من أزره وتساعده قدر استطاعتها وتسهل له سبل النصر وتمهد له طريق الفوز ... وقد أشــار الى ذلك ادوارد جيبون فى قوله « ان النســاء اللاتى تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمى بالنبل هن اللاتى اذا وقعت احداهن فى الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أى انسان .. » .

ولنساء المسلمين تاريخ طويل مجيد فى ميادين القتال فقد ذكر الطبرى وابن الأثير الدور الكبير الذى قامت به أروى بنت الحارث ابن كلدة [1] عند فتح ميسان وأشار ادوارد جيبون فى كتابه

---

(١) سار المغيرة الى أهل ميسان وعلمت بمسيرة أروى بنت الحارث بن كلدة طبيب العرب المشــهور فعرضت على نســاء المسلمين أن يلحقن بالمسلمين فيكن لهم عونا وعقــدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمورهن رايات وخرجن يردن المسلمين =

« تاريخ الامبراطورية الشرقية » الى شجاعة النساء المسلمات التى أظهرنها فى حصار دمشق .

وتاريخ الحروب الاسلامية حافل ببطولة النساء المسلمات اللاتى حملن السلاح وخضن المعارك وشاركن الرجال وأتين فى الميدان بأعظم الأعمال شأنهن فى ذلك شأن أعاظم الرجال .

= فانتهين اليهم وهم يخوضون المعركة فلما رأى العدو رايات مقبلة ظن أن مددا أتى المسلمين ففروا من ميدان المعركة وتبعهم المسلمون وطاردوهم وقتلوا منهم عددا كبيرا .

الباب الخامس

غارات المثنى

خنافس ... بغداد ... صفين

صبحنا بالخنافس جمـع بكر
وحيا من قضاعة غـير ميـل
نسفنا سوقهم والخيـل رود
من التطواف والشر البخيـل

الخنـــافس

اعادة تنظيم القوات ...

قلنا ان المثنى بعد انتصاره العظيم فى موقعة البويب بعث بجنده يحتلون النقط العسكرية الهامة التى يستطيع أن يرتكز عليها فى أية عملية مقبلة ، ثم فرق جيشه فى السواد وأمر جنـــده باخضاع جميع العرب القاطنين فى السواد لسلطة المسلمين وأخذت فرقه تستخضع البلاد التى عصت من قبل .

أرسل جرير بن عبـــد الله البجلى الى منطقة ميسان وهى منطقة واسعة كثيرة القرى والنخل .

وأرسل هلال بن علفة الى دستميسان وهى منطقة مجاورة لمنطقة ميسان وتقع ضمن حدودها مدينة البصرة ومدينة الأبلة .

وأرســـل تعزيزات لمواقعـــه ومراكـــزه العســـكرية ونقطة الاستراتيجية بقيادة عصمة بن عبد الله الضبى ، وعرفجة بن هرثمة البارقى ، والكلح الضبى وهو من فرسان العرب وكان المثنى قد أسند اليه حماية الجسر .

وكلف المثنى قواته الخفيفة الحـــركة (الخيالة) بالقيـــام بعمليات استطلاع بعيدة المدى بقصد جمع الأخبار عن الفرس .. مواقعهم .. مرافقهـــم .. قواعدهم .. ذخـــيرتهم .. المـــيرة .. استعداداتهم .. حالتهم الداخلية .. وبناء على المعلومات التى كانت

تصل اليه كان ينظم غاراته المفاجئة المباغتة ويخرج من هـذه الغارات بمغانم كثيرة فوق تثبيته لأقدام جيشه فى المناطق التى كان يقوم بالاغارة عليها .

سوق الخنافس ..

ترك المثنى بشير بن الخصاصية بالحيرة ، وتوجه الى أليس وهى قرية من قرى الأنبار ، وهناك جاءه رجلان أحدهما أنبارى والآخر حيرى ، ودله الأنبارى على سوق الخنافس ، ودله الحيرى على سوق بغداد .

وبحث المثنى الموقف ، ودرس العرضـين اللذين قدمهمـا الأنبارى والحيرى فرأى أن سوق الخنافس أقرب اليه من سوق بغداد ، وأنه من السهل عليه أن يصل الى هذه السوق فى فترة وجيزة وبسرعة مما يحقق المفاجأة .

وسوق الخنافس هى سـوق يتوافد اليها تجار كثيرون من جميع أنحاء السواد والعراق ..

وقرر المثنى أن يهاجم السوق وانتظر موعده فلما قرب يومه أعد العدة للاغارة عليها .. وفى يوم السوق فاجأ المثنى الموجودين بها واستولى على ما بها ثم عاد الى مركز رياسته وهو ينشد ..

صبحنا بالخنافس جمـع بكر   وحيـا من قضاعة غـير ميـل
بفتيـان الوغى من كل حى   تبارى فى الحـوادث كل جيل
نسفنا سوقهم والخيـل رود   من التطواف والشر البخيـل

غارات أخرى ...

وبعد أن انتهى المثنى من غاراته على سوق الخنافس ، شن غارات أخرى على الأنبار وبادوريا [1] ، وقطربل [2] ، وغنم المثنى من هذه الغارات مغانم كثيرة حتى أن كثيرا من شعراء العــرب تغنوا بهذه الغارات ، ومنهم من قال ...

وللمثنى بالعـــال معركة	شـاهدها من قبيـلة بشر
كتيبة أفزعت بوقعتهـــا	كسرى وكاد الايوان ينفطـر
وشجع المسلمون اذ حذروا	وفى ضروب التجـارب الحذر
سهل نهـج السبيل فاقتفروا	آثاره والأمـــور تقتفر [3]

سوق بغداد ...

كانت سوق بغداد سوقا كبيرة تقام كل سنة ، فيأتى اليهـا التجار من داخل أراضى العراق ومن أرض السواد ومن مختلف البلاد والنواحى وتجتمع بها أموال كثيرة لا حصر لها حتى أن بعض المراجع أجمعت على أن أموال السوق تقدر بأموال بيت المـال .

وقد يتبادر الى الذهن أن المثنى قد أراد بهذه الغـارات الاستيلاء على الأموال لنفسه ، ولكن الواقع أنه أراد أن يأخذ

---

(١) ذكرت فى بعض المراجع بادرويا .
وذكرت ياقوت الحموى أنها تقع فى الجانب الغربى من بغداد ضمن منطقة نهر عيسى بن على ، وتصل بعض مبانى بغداد الى طرفها .
(٢) هى قرية تقع بين بغداد وعطبرة .
(٣) أى تقفى .

المسلمون هـذه الأموال وهى أموال أعدائهم فيضربون بذلك عصفورين بحجر واحد ، يحرمون أعداءهم من المال الذى هـو الأساس الأول فى اعداد الجيوش وتسليحها ويستفيدون هم بهذا المال فى الاعداد لمحاربة أعدائهم والقضاء عليهم .

وقرر المثنى أن تكون غارته على سوق بغداد مفاجأة لهؤلاء الذين يتوافدون عليه حتى تكون غارته ذات فائدة كبيرة ، فخرج من مكان قرب البويب يطلق عليه اسم النخيلة ، وكان معه أدلاء من أهل الحيرة يدلونه على الطريق ، فوصل فى الليل الى الأنبار ، وكان عليها رجل فارسى يدعى شفروخ هو مرزبانها فبعث اليه المثنى يطلب منه أن يأتى اليه ، وكان الرجل قد سمع عن المثنى وبطولته فى الحرب وشدته فى القتال ، فخاف أن يذهب اليه ، الا أن المثنى أعاد دعوته وأمنه فجاء اليه .

وفوجىء المثنى وهو يعبر النهر بالجسر مقطوعا ، وقامت بذلك أمامه مشـكلة كبيرة اذ كيف يجتاز النهر ليصل الى بغداد ؟ ولم يكن أمامه من سبيل سوى أن يساعده المرزبان شفروخ فى الوصول الى غايته وتحقيق أمنيته ، ولم يشأ المثنى أن يعرف الناس حقيقة اتجاهه ، فأخفى خطواته التالية ، ولم يشر فى أى حديث له الى أنه ينوى مهاجمة بغداد ، واجتمع بالمرزبان وقال له « انى أريد أن أغير على المدائن وأريد أن ترسل معى الأدلاء وتعقد لى الجسر لأعبر عليه الفرات الى المدائن » .

واقتنع مرزبان الأنبار بما قاله المثنى فجمع له الأدلاء وأمر لهم بعلف وطعام وعقد لهم الجسر فعبروا .

وتقدم القوم على الطريق وعلم المثنى أنه قد أصبح على بعد أربعة فراسخ أو خمسة من بغـداد اذ سأل الدليل « كم بيننا وبين بغداد ؟ » فأجابه « أربعة أو خمسة فراسخ ، وقد بقى عليك ليــل » .

وكان لابد للمثنى من المحافظة على غرضه وهو سوق بغداد فلما علم أنه قد أصبح قريبا منها وضع خطة التحرك اليها ، وهو كما أشرنا كان يضع خطته على أساس المفاجأة التامة ، ولهــذا أمر أصحابه بالنزول ، وأقام معسكرا على الطريق ، ثم عين حرسا من بعض رجاله يتناوب حماية المعسكر ليلا وسمح لباقى قواته بالراحة والنوم .

وضمانا للسرية ومحافظة على تحقيق المفاجأة ، عين بعض رجاله من الفرسان ليقوموا بأعمال الدوريات حول معسكره ، والى مسافة بعيدة منه ، وأمرهم بالقاء القبض على كل فرد يقترب من المعسكر أو يحوم حــوله أو يشك فيه وبذلك يكون قد اتخذ الخطوات الايجابية الفعالة لمنع أخباره عن أهل الســوق وهو بذلك أيضا يكون قد قطع كل سبيل الى وصول أنبائه الى هنــاك .

وفى آخر الليل أنهض المثنى رجاله وأمرهم بالاستعداد وسمح لهم بتناول طعامهم وبالوضوء وباعداد الخيل فيعلفونها ويسقونها حتى تكون هى الأخرى على اســتعداد تام للمهمة الكبيرة التى تنتظرهم فى سوق بغداد ، واستيقظ الناس ، وعلفوا الخيل وجمعوا السلاح ثم حزموا خيلهم .

ولما تم الاستعداد للتحرك أمر قواته بالتحرك ليلا قبل طلوع الفجر .. أى أن المثنى بدأ زحفه على سوق بغداد قبل أول ضوء على حد تعبير العسكريين اليوم .

وتقدمت القوات نحو بغداد ووصلت قبل بزوغ الشمس ، وبدأت هجومها ووضعت السيوف فى الأهالى وكان للمفاجأة أثر كبير فارتاع الناس واضطربوا وفروا تاركين أموالهم وتجارتهم غنيمة فى أيدى رجال المثنى .

وقدر المثنى موقفه فى سرعة فأصدر أوامره الى الجند بحمل الذهب والفضة والحرير وما كان خفيفا وزنه غاليا ثمنه .

وتحقق الفوز الذى كان ينشده المثنى فى سوق بغداد .

وبدأت قواته تعود أدراجها حتى أصبحت قريبة من الأنبار فنزلت بنهر السيلحين ، وعسكرت هناك .

وبينما المثنى يمر بقواته سمع همسا بين القوم يقول « ما أسرع القوم فى طلبنا ؟ » وتنبه وهو القائد المحنك الى المعنى الذى يختفى وراء هذا الهمس ، وأدرك خطورة القلق الذى تسرب الى قلوب رجاله ، وأحس أنهم قد بدءوا يخافون ويتزعزعون ، وكان لابد من أن يعمل شيئا يعيد به معنوياتهم ويشد من عزائمهم ويثير حماسهم ، فدعا اليه الجند وتحدث اليهم فقال « أيها النـــاس احمدوا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان .. انظروا فى الأمور وقدروها ثم تكلموا ، انه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم .. ان للغارات روعات تنتشر عليها يوما الى الليل ولو طلبكم المحامون من رأى العين

ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف (١) البطاء حتى تنتهـوا الى عسكركم وجماعتكم ، ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التمـاس الأجر ورجاء النصر ، فثقوا بالله وأحسنوا الظن فقد نصركم الله عليهم فى مواطن كثيرة وهم أكثر منكم وأعز » .

هذه الخطبة توضح لنا اتجاها هاما فى حياة المثنى العسكرية وتشير الى صفات ومميزات يتميز بها عن غيره من قادة أعدائه فبدراسة هذه الخطبة نجد أن المثنى ..

١ — يتجه بمشاعره واحساساته الى الله ، وهـذا الاتجاه يصور لنا مدى ايمانه بربه وبرسوله وبكتابه وهـو ينقل هذه المشاعر والاحساسات الى جنده ويدعوهم الى ذكر الله والى حمده ، كما يدعوهم الى الثقـة الكاملة فى الله لأنه أيدهم بنصره فى معارك كثيرة كانوا هم فيها أقل عددا وأقل عدة .

٢ — يدعو جنـده الى عدم الاندفاع وراء الشائعات ، ويطلب منهم أن يتريثوا ويتبينوا ويقدروا الأمـور حتى لا يكون تسرعهم من عوامل فشلهم وهو بدعوته هذه يصور لهم خطورة الاشاعات وخطورة الحديث الخافت الذى يرمى الى الهدم لا الى البناء .

---

(١) جمع مقرف أى الخيل غير الأصيلة .

٣ — يصور لجنده حالة عدوهم وقد انتشر الرعب والفزع بينهم ويؤكد أن العدو قد أصبح فى حالة ذعر لا تسمح له بأن يسعى الى طلبهم وهو بذلك يحدث جنده عن معنويات العدو ويؤكد لهم أن انحطاط هذه المعنويات تضعف الرغبة فى القتال وتفل العزيمة وتقلل الحماس وتهن القوى ، وهذا هو الحال لعدوهم بعد أن انتصروا عليه انتصارات ساحقة وبعد أن أوقعوا به هزائم متتالية فهو أصبح فى حالة لا تسمح له بطلبهم .

٤ — يثير فى جنده الثقة بالنفس وبالسلاح ، فهو يقول لهم ان خيل العرب تفوق خيل الأعداء لأنها أصيلة نشأت على التربية العربية التى تتولاها بالتدريب والتعليم فتكر وتفر فى براعة وفى فن يفوق فن الفرس فى هذا المجال ، هذا فوق أن جياد الفرس ضعيفة بطيئة فى جريها لا يعتمد عليها فى الوصول الى الأهداف بالسرعة المطلوبة .

٥ — يثير فى جنده الهمة والشجاعة والحماس ، ويؤكد لهم أن لقاء العدو بهم لن يمس مبادئهم وشجاعتهم وقوتهم لأنهم يقاتلون فى سبيل أمرين وهم ينشدون فى قتالهم احدى الحسنيين ، فاما نصر ساحق عظيم واما استشهاد عزيز كريم ، والعربى المسلم حين يسمع حديث النصر، أو حديث الاستشهاد ينسى كل شىء له ، ويبعد عنه

الخوف ويهجره اليأس ويعيش حيـــاته قوى النفس عظيم الهمة ، وهو مدرك أن الله تبارك وتعالى سيصدق معه وعده ويحقق له النصر الأكيد .

وعاد الى جنود المثنى بعد استماعهم الى خطبة قائدهم وبعد أن فهموا معناها ومرماها .. هدوؤهم وثباتهم فقد كانت كلماته بردا وسلاما عليهم فلفظوا الأفكار التى كانت قد سيطرت عليهم وبدءوا يعيشون من جديد فى ذكرى انتصاراتهم وفى الأمل الكبير الذى يداعب خيالهم بسحق الفرس وازالة دولتهم ورفع راية الاسلام فوق بلادهم .

تقدمت قوات المثنى الى الأنبار حيث استقبلها حاكمها استقبالا حسنا ثم عاد المثنى بعد ذلك بقواته الى مركز رياسته فى النخيلة .

صفين ...

بعث المثنى فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على أحياء من تغلب والنمر فى صفين .

وعندما علم أهل صفين عبروا الفرات وتحصنوا فى الجـــزيرة ورأى المثنى أن يلحق بقواته وأن يكون على رأسها ولكنه تعرض لمشكلة ادارية هامة ولولا أنه رجل حرب لما استطاع أن يحـــل المشكلة وأن يجتاز الأزمة وأن يتغلب على ما تعرض له من أخطار .

فبينما المثنى ورجاله يجتازون منطقة صحراوية لا تملك امداده بزاد أو طعام نفد كل ما يحمله من زاد وتجسمت أمامه مشـــكلة ادارية خطيرة .. اذ كيف يقوى جنده على المسير وكيف تقوى خيله

على التحرك ولا زاد عنده ولا ماء ، ولا سبيل أمامه الى تموينها وامدادها بما يلزمها ؟ .

ماذا اذن يفعل المثنى ؟ ..

اتجه الى رواحله فجمع منها ما يمكنه الاستغناء عنه ، ثم عاش هو ورجاله على لحومها وأخفافها وبذل جهدا كبيرا حتى يمكن هذه الرواحل أن تكفى احتياجاتهم أطول فترة ممكنة .

هذه المشكلة واجهت من قبل خالد بن الوليد حين تحرك من العراق الى الشام ، وكان الطريق شاقا وحذره منه الأدلاء حتى أن رافع بن عمير قال له « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها الا مغرور ، انها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء » وقال خالد لجنده وقد أحسوا بخطورة المرحلة القادمة « لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله » ، وكان خالد خلال تحركه اذا نزل منزلا اقتط أربعا من الجزور وأخذ ما فى أكراشها فيسقى الخيل ثم يشرب الناس واستطاع خالد أن يعبر الطريق بما فيه من مخاطر وعقبات .

وكذلك فعل المثنى .. وبينما هو يجتاز هذه المحنة جاءه فضل الله ومعونته اذ مرت به قافلة من أهل مدينة دبا [1] ، ومدينة حوران [2]

---

(١) دبا مدينة قديمة مشهورة بعمان وكان فيها سوق للعرب .

(٢) منطقة من اعمال دمشق ذات زرع كثير .

فأمر بمهاجمتها ، وأسر رجاله ثلاثة من بنى تغلب وقتلوا باقى أفراد القافلة ثم وضعوا أيديهم على ما فى القافلة من خير وطعام .

الاغارة على تغلب ..

لم تكد هذه المحنة تمر وتنقضى حتى تعرض المثنى لمحنة أخرى .. فقد ضل طريقه وكان الوقت ظهرا والحرارة على أشدها ، وكان لابد من تصرف سريع عاجل والا ضاعت الحملة كلها ، وتنبه المثنى الى وجود الأسرى معه فاتجه اليهم وطلب منهم أن يكونوا أدلاءه ، وأن يقودوا رجاله الى الطريق الصحيح ، ورأى منهم مكرا ودهاء فهددهم بالقتل ان لم يستجيبوا اليه ، فاستجاب اليه أحدهم وطلب منه أن يؤمنه على أهله وماله وقال له « أدلكم على حى من تغلب غدوت من عندهم اليوم » ، وأمنه المثنى وسار معه حتى وصل مع بداية الليل الى مواقع جلس فيها أصحابها مطمئنين ومن حولهم الماء والرواحل فأمر المثنى رجاله بالقيام بهجوم عاجل سريع عليهم وفوجىء القوم بالهجوم وسقط فى أيديهم ، ولم يعد أمامهم سوى التسليم وغنم المثنى منهم غنائم كثيرة .

تكريت ...

علم المثنى أن جماعة من تغلب تتجمع على دجلة مع قوم من تكريت ، فقرر القضاء عليهم . وأعد عدته وجهز قواته ، فجعل حذيفة ابن محصن على المقدمة ، والنعمان بن عوف ومطر الشيبانى على مجنبتيه ، وتقدمت قواته الى القوم وأدركتهم عند تكريت ، ورأى

المثنى أن يشارك جنده فى المعركة فأسرع يلحق بهم ووصلهم قبل الاشتباك وشاركهم فى القتال ، وبدأ معهم الهجوم فأصاب القوم ووضع أيديه على غنائم كثيرة حتى قيل ان الرجل الواحد أصاب خمسا من السبى وخمس المال .

وبعد أن انتهت هذه الغارة عاد المثنى بقواته الى الانبار .

نتائج هذه الغارات ...

كانت لهذه الغارات نتائج هامة بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للفرس ، وأولى هذه النتائج أن المنطقة كلها قد أصبحت تحت سلطان المسلمين وفى أيديهم فقد اتسع نطاق الأرض التى يسيطر عليها المسلمون وأصبحت جموعهم قريبة من مواقع الفرس فى انتظار اللحظات الحاسمة التى سيتقرر فيها مصير الفرس والتى ستؤدى بحكمهم الى الزوال والانهيار .

وكان الفرس ينظـرون الى هـذا التوسع بخوف وقلق واضطراب ، فقد أحسوا بعد هزائمهم المتكررة بأن حياتهم قد قاربت النهاية وان سلطانهم فى طريقه الى الزوال وان النصر العربى يعلو يوما بعد يوم وان استقرار العرب فوق أرضهم قد أصبح أمرا منتهيا مؤكدا وان ما رآه القائد رستم من نهاية دولة الفرس قد أصبح وشيك الوقوع .

ولقد خيل للفرس أن هؤلاء الغزاة من العـرب سيدخلون عليهم عاصمة بلادهم ويفضون كل حصونهم ومسالحهم ويخضعون أبناء كسرى لسلطانهم حتى أنهم صاروا يرددون « فما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن » .

ومن نتائج هذه الغارات أن المسلمين عاشوا هذه الفترة فى عمل متواصل دون ركود حتى لا يغرهم النصر الذى أحرزوه فيقعدوا عن طلبه ، وكان المثنى حكيما حين أراد أن يشغل جنده بهذه الغارات حتى يحين الوقت الذى يخوضون فيه المعارك الحاسمة ضد الفرس ، ولولا أن المثنى استطاع أن يقضى على اضطرابهم وقلقهم بعد الغارة على سوق بغداد لاستفحل الأمر ولاهتزت معنوياتهم ولأضعف ذلك روح القتال عندهم ، ولا شك فى أن هذه الغارات قد جددت عندهم الرغبة فى القتال كما أن انتصاراتهم المتكررة فى هذه الغارات قد أحيت عندهم الأمل فى القضاء نهائيا على دولة الفرس ، ولعل هذه الغارات تكون من العوامل الكبيرة التى سهلت أمر انتصارهم فى القادسية لأنها تكون قد حشدت عندهم الطاقات والامكانيات والدوافع والرغبة فى الحصول على النصر وتحقيق أهداف الخليفة فى أرض العراق .

ومن نتائج هذه الغارات أن المسلمين غنموا مغانم كثيرة خسرها الجانب الآخر ، فقد انتقلت ثروة فارس الى أيدى العرب ، وبعث القائد العربى الى المدينة بنصيب بيت المال من هذه المغانم حتى امتلأت بها جوانب المسجد واضطر الخليفة عمر الى اقامة حراسة عليها كلف بها اثنين من المسلمين الأشداء هما عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم .. فقد بعث المثنى الى المدينة بما لا يكاد يقع تحت حصر ، فلما وقع عليه نظر الخليفة رأى شيئا لم تر عيناه

مثله من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضـــة ما يقوم به أود المسلمين ، ويعين المعدمين منهم على أمور دينهم .

ولم ينس المثنى المقاتلين فمنحهم حقهم من المغـــانم عدا السبى والأنعام ، ونال كل منهم نصيبا عادلا كبيرا من الخز والحرير واللؤلؤ والذهب والفضة والجواهر .. ولقد قيل انهم فى سوق بغداد ملأوا أيديهم بالبيضاء والصفراء أى بالفضة والذهب .

وصور بشر بن أبى رهم الهجينى — وهو واحد من فرسان المثنى المشهورين — هذه المغانم فى قصيدة له بعث بها الى عمر بن الخطاب قال فيها (١) :

وعنـــد أمير المؤمنين نوافـــل وعنـــد المثنى فضـــة وحرير

تولية يزدجرد ...

لم يلبث الفرس حين زال عنهـــم روع البويب ان عادوا يفكرون فيما يوشك أن يصير اليه أمرهم اذا ظلوا فيما هم فيه من فرقة وانقسام وقد جال بخاطرهم أن هؤلاء العـــرب الغازين سيدخلون عليهم عاصمة ملكهم وخاصة أنهم ما زالوا يطاردونهم

---

(١) قيل ان بشرا بعث بقصـــــيدته الى عمر يشـــكو ســـعد ابن أبى وقاص ، لأن سعدا قسم الخراج فبقيت منه بقية فرقهـــا على قراء القرآن ، وكانوا ســـبعه ثم كتب الى عمر أنهم صـــاروا سبعين فأمره عمر بأن يفرقها فى أهل البلاد والنكاية فى العدو ، فلم يدخل بشر ضمنهم فكتب الى الخليفة يعتب على سعد ويذكر حسن بلائه وما كان يحوزه مع المثنى ، فلما قرأ عمر القصـــيدة امر سعدا أن يلحقه فى أهل البلاد وأن يقدمه ففعل .

فى كل مكان ويترسمون آثارهم ، ويغيرون على أحيائهم ويهدمون حصونهم ويتوغلون فى بلادهم .

ورأى الفرس أن الأمر سيفلت من أيديهم ، وان مستقبلهم مهدد وان وجودهم فى خطر وان كيانهم يهتز اهتزازا عنيفا ينذر بقرب نهايتهم ولهذا قرروا أن تحشد قواتهم وأن تتحد كلمتهم حتى يستطيعوا مواجهة الأعداء وطردهم من أرضهم .

وقد كان الخلاف على أشده فى الفرس وانقسم الناس الى حزبين يتنازعان السلطان على رأس أحدهما رستم وعلى الآخر الفيرزان ، ومن وراء كل منهما توجد طائفة من المؤيدين تنافس الطائفة الأخرى .. وكان لابد من تصرف حاسم ينهى الخلاف ويوحد الكلمة ويعيد للصفوف نظامها فاجتمع أهل الفرس بالقائدين رستم والفيرزان ، وتحدثوا اليهما فى صراحة ووضوح « فما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن .. والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ونشفين نفوسنا منكما » .. وتشاور الرجلان واستكتبا بوران كتابا الى نساء كسرى وسراريه ، فجاءوا بهن وعرفوا منهن أنه لم يبق ذكر من ذرية كسرى الا يزدجرد[1] بن شهريار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة، فاجتمعوا عليه وولوه القيادة وجعلوه على عرش أجداده وتساندوا فى معاونته ، وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته ، واطمأنت فارس

---

(١) كانت أمه قد أخفته عند أخواله حين قتل شيرى جميع الذكور فى ذرية أبيه .

وأخذت تعد العدة للثأر لكرامتها وشرفها ، ولطرد المثنى الى أطراف الصحراء أو القائه فى الفرات .

خطة المثنى ...

لم تخف على المثنى مفاوضات الفرس فى ديوان ملكهم ومحاولتهم جمع الكلمة وحشد القوى لمنازلته .

ولم يخف عليه أيضا أن أهل السواد لن يلبثوا حين تسير جيوش الفرس اليه أن يثوروا عليه ويهاجموا قواته .

وجمع المثنى قادة جيشه واخوته ، وعرض عليهم الأمر وتداول معهم وتشاور وبدا لهم أن الجيش الاسلامى فى حاجة الى مدد سريع عاجل يستطيع به أن ينظم صفوفه وأن يواجه عدوه ...

واستقر الرأى على أمرين ...

الأول — مخاطبة الخليفة وعرض الأمر عليه فى صراحة ، وتوضيح الخطر المحدق بهم وما يتوقعونه من ثورة وطلب العون السريع العاجل .

الثانى — الانسحاب من مواقع المسلمين الى تخوم شبه الجزيرة ، وخاصة أن أهل السواد قد نقضوا ما بينهم وبين المسلمين وكفروا بالعهد .

وبعث المثنى بخطابه الى الخليفة عمر بن الخطاب .

ثم أمر قواته بالانسحاب ، فانسحبت الى ذى قار واحتلت موقعا يمتد من الجل [1] ، وشراف [2] ، الى غضى [3] ، وأعد

---

(١) موضع بالبادية على امتداد القادسية .

(٢) تقع جنوب الكوفة بثلاثة أميال (٣) جبل البصرة .

مسالح ونقطا عسكرية وأقام خطوطا للدفاع ، وتميز موقعه الجديد بأن المسالح كانت تنظر بعضها الى بعض وتعاون بعضها البعض .

جيش سعد ...

لما وصل كتاب المثنى الى عمر وعرف منه حقيقة الموقف قال « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » ، وكتب الى المثنى يعلنه موافقته على الخروج الى تخوم العراق والتفرق فى المياه التى تلى العجم وطلب منه أن يستمد أهل النجدة حتى لا يبغته الفرس وهو فى غير عدد وعدة .

وأمر عمر بعد ذلك بتجهيز جيش يسير الى العراق ، وبعث الى عماله يقول « لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الىّ .. والعجل العجل » ، فلما اجتمع لديه بضعة آلاف من الجند خرج بهم حتى نزل على ماء يدعى صرار وعسكر به ، ثم رأى أن يسير هو على رأس الجيش ، الا أن أصحابه طلبوا أن يعين على الجيش رجلا من أصحاب رسول الله ، وأن يبقى هو فى المدينة وقالوا له « فان كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون والا ندب جندا آخر يغيظ به العدو حتى يجيء نصر الله » . وقال له عبد الرحمن ابن عوف « أقم وابعث جندا فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك فليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تهزم خشيت أن لا يكبر المسلمون ، والا يشهدوا أن لا اله الا الله أبدا » .

واستجاب عمر لدعوة أصحابه واستشارهم فى الرجل الذى يتولى قيادة الجيش فقالوا له « الأسد فى براثنه ! سعد بن مالك ابن وهب ! [1] ، وكان سعد فى نجد فاستدعاه عمر وولاه حرب العراق وأوصاه قائلا « يا سعد ، سعد بنى وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولكنه يمحو السيىء بالحسن ! وليس بين الله وأحد نسب الا بطاعته فالناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه وعليك بالصبر » .

---

(١) سعد بن أبى وقاص من بنى زهرة أخوال النبى ولد بمكة وعاش بها وكان من أسبق قريش الى الاسلام اذ أسلم وهو ابن سبع عشرة سنه وقال فى ذلك « رأيت فى المنام قبل أن أسلم بثلاث كأنى فى ظلمة بحر لا أبصر شيئا اذ أضاء لى قمر فاتبعته فكأنى أنظر الى من سبقنى الى ذلك القمر فأنظر الى زيد بن حارثة والى على بن أبى طالب والى أبى بكر وكأنى أسألهم متى انتهيتم الى ها هنا ؟ قالوا الساعة !! وبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفيا فلقيته فى شعب جياد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمنى أحد الا هؤلاء » وقال أيضا « ما أسلم رجل قبلى الا رجل أسلم فى اليوم الذى أسلمت فيه وقد أتى على يوم وانى لثلث الاسلام » ، وكان سعد ذا نعمة ومال يرتدى الخز ويلبس فى يده خاتما من ذهب ، وكان فارسا شجاعا مقداما من الرماة شهد بدرا وأحدا والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وهو الذى قضى على دولة الفرس فى القادسية والمدائن .

نهاية المثنى ...

كان المثنى مريضا طريح الفراش يشكو من اصابته فى واقعة الجسر واشتد عليه المرض وأحس بدنو منيته ، فاستخلف على الجند بشير بن الخصاصية ورحل الى قومه فى شراف حيث لم يطل مقامه فمات ، وصاحب أخوه المعنى امرأته سلمى وسار بها حتى أدرك سعدا بشراف وأبلغه وفاة المثنى ، وقص عليه نبأ قابوس وبنى بكر بن وائل ، وكان المثنى قد بعثه اليهم حين علم أن البلاط الفارسى يسعى سعيا متواصلا لاستمالتهم الى جانبه ليضرب بهم خصومه الفاتحين ، ثم قرأ عليه وصية المثنى وهى أن يلازم العرب مراكزهم على حدود الصحراء ، وأن لا يقاتلوا أعداءهم فى عقر دارهم وأن يقاتلوهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العجم ، فأمامهم البادية فانها تحميهم وتقى ظهورهم والفرس لا يستطيعون التوغل فيها كما أن البادية تمكنهم من أن يعودوا لمهاجمة خصمهم .

ولما سمع سعد وصية المثنى حزن لموته وترحم عليه وأوصى المعنى بأهل بيته خيرا ، ثم خطب لنفسه سلمى أرملة المثنى ، وتزوج وبنى بها ، وكان الغرض من هذا الزواج كما هى عادة العرب تكريم المتوفى وتكريم أرملته حتى تظل فى مثل عزها وكرامتها فى حياة زوجها الأول ، وقد عاشت سلمى مع سعد وهى تتذكر زوجها البطل المثنى ، وتعيش على ذكراه فى خلال معارك المسلمين ضد الفرس ، وكان لها فى موقعة القادسية دور سبق الاشارة اليه فى باب سابق .

الباب السادس

المثنى القائد

« ان الرجل الذى يتولى ادارة المعركة لابد له أن يكون ذا موهبة خاصة هى القدرة على القيادة » .

قامت الدولة الاسلامية أول ما قامت فى مكة والمدينة ، ثم فى أنحاء الجزيرة العربية ، وامتد ظلها بعد ذلك فى ربوع الأرض فشملت بلادا بعيدة ودولا عظيمة وامبراطوريات كانت قائمة ، ثم زالت وأصبحت تمثل جانبا فى الرقعة الاسلامية . وهذا التوسع الكبير الذى امتد من بلاد العراق شرقا الى المغرب الافريقى مهدت له دوافع وعوامل وأسباب ..

وتأتى فى المرتبة الأولى من هذه الدوافع والأسباب والعوامل المبادىء الانسانية العظيمة التى جاء بها الاسلام ودعا الى التمسك بها وجعلها أساسا لحياة الناس .. لقد ناقش الناس هذه المبادىء وأحسوا بضرورتها فى حياتهم ، فأقبلوا عليها وقد آمنوا بها وتجاوبت مشاعرهم واحساساتهم بها وتفاعلت عواطفهم معها واستجاب الناس فى جميع البلاد التى دخلت فى الاسلام والتى أصبحت ضمن حدود الدولة الاسلامية الى كل دعوة وجهت اليهم للايمان بالاسلام والدخول فيه ..

ولا شك فى أن العدالة والمساواة واقرار الحريات ورفض الظلم كانت من أهم هذه المبادىء .. فبلاد الفرس مثلا كان أهلها يعيشون فى حالة اجتماعية منفرة .. ضرائب كثيرة لا عدل فى توزيعها ولا رحمة فى جمعها .. ومظالم متعددة لا سبيل الى صدها .. وطبقات متفاوتة تستعبد بعضها البعض الآخر وتتميز عنها بميزات لا حدود لها .. وعاش الناس فى نفور من هذه الحياة

الاجتماعية ، وكانوا يتطلعون الى المستقبل ، آملين أن يحدث تغيير فى حياتهم .. وسمعوا بالاسلام وبمبادئه وبمثله وبعدالته فتفتحت قلوبهم وعقولهم وتنبهت مشاعرهم واحساساتهم وعاشوا ينتظرون رحمة الله فتأتيهم الدعوة من الجزيرة ليتخلصوا من حياتهم التى يعيشونها ويدخلوا فى الدين الجديد ينعمون فى ظله بالأمان والاطمئنان وهكذا كان الحال فى بلاد الشام حيث كانت تقوم دولة الروم . وهكذا كان الحال أيضا فى مصر وبلاد شمال أفريقيا ، واستجابت هذه البقاع كلها لمبادىء الاسلام الخالدة وآمنت بها ، وكانت هذه الاستجابة من العوامل الكبيرة التى ساعدت على الفتوح الاسلامية لأن هذه الاستجابة زلزلت كيان الجبهة الداخلية للأعداء .

وكان فى مقدمة هذه العوامل الدور الكبير الذى قام به الخليفتان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ... فعندما تولى أبو بكر الخلافة واجه مشكلة خطيرة الا وهى الفتنة التى تعرض لها الاسلام بعد وفاة الرسول حين ارتد كثير من المسلمين عن الاسلام ويشهد التاريخ أن بقاء كيان الدولة الاسلامية سليما متماسكا فى هذه الفترة يرجع الى جهد أبى بكر وصدق عزيمته ... ثم رأى أبو بكر أن يشغل المسلمين عن العودة الى اثارة القلاقل فى داخل الجزيرة فوجههم الى بلاد الشام ، ثم استجاب لدعوة المثنى فوجه جيوشه الى بلاد العراق .

ولا ينكر فضل الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد مات أبو بكر خلال المعارك الكبيرة فى أرض الشام وتولى هو أمر المسلمين ،

وألقيت على عاتقه مسئولية العمل من أجل الحفاظ على المكاسب الكبيرة التى أحرزها الاسلام . وأدى عمر واجبه وقام بالمسئولية خير قيـام واليه يرجع الفضل كل الفضـل فى امداد الجيوش الاسلامية بالمدد والعتاد كلما تطلب الأمر امدادهم مما جعل هذه الجيوش على استعداد تام وقدرات متواصلة وامكانيات وطاقات تمكنها من أن تحقق رسالة الاسلام .

وسجلت — القيادات الناجحة — التى أسندت اليها عمليات الفتح والتى قدمت مثلا عظيما فى فن القيادة وفى فن الحرب والقتال ورسمت الخطوط العريضة لنظم الحرب وتكتيكاتها ، ووضعت رغم بداءة السلاح وبداءة الفن الحـربى مخططات المعركة — صفحات مشرقة فى التاريخ الحربى رغم أن كثيرا من الكتاب والمؤرخين تناسوها تحت ظروف متعمدة بقصد انزال الستار عن ناحية هامة فى حياة المسلمين ولا يختلف اثنان فى أن الرسـول الكريم كان نبراسا لقادة الاسلام فوضع لهم الأسس ، ورسم لهم الوسائل وحدد لهم الطرق فساروا على الدرب وتفننوا فى فن القتال حتى بزغت أسماؤهم وعظمت سيرتهم واحتلوا مكانا مرموقا فى التاريخ .. فالمتتبع لحياتهم فى المعركة يرى فى وضوح ويلمس فى جلاء مقدرتهم وفنهم وعبقريتهم حتى أنهم أصبحوا يمثلون مدرسة عسكرية قائمة بذاتهـا ، وحتى أن كثيرا من المدارس العسكرية المتقدمة أخذت عنهم فن الحرب وأسسه ونظمه ووسائله والتاريخ الحربى يؤكد هذه الحقيقة التى حاول أعداء الاسلام وأعداء العروبة طمسها واخفاءها رغبة فى القاء الضوء على كفاءات

العروبة طمسها واخفاءها رغبة فى القاء الضوء على كفاءات ظهرت بينهم فأرادوا أن يجعلوها نبراسا للعسكريين وأن يرجعوا الفضل فى تطوير نظم الحرب اليهم دون أصحابه الحقيقيين . والحديث عن القيادات الناجحة فى الاسلام يحتاج الى مؤلفات كثيرة وقد تناولها كثيرون فى مؤلفاتهم كما تناولناها فى بعض مؤلفاتنا بالشرح والتفصيل .

والمثنى بن حارثة الشيبانى واحد من القادة العرب العسكريين كانت له جولات واسعة المدى فى مجال الحرب والقتال ، وكان له باع طويل فى المجال العسكرى ، وكتب لنفسه صفحات خالدة وسجل مواقف بطولية ، واستطاع أن يرقى سلم المجد الحربى فى سنوات قليلة وأن يحتل مكان الصدارة بين القادة العسكريين ، وأن يبرز اسمه كمحارب فذ وكقائد كفء فى الميدان وأن يحرز انتصارات تاريخية برغم أنه كان يقابل بجيوش قليلة العدد والعدة جيوشا تفوقها فى الأفراد والسلاح تقف من ورائها أمم ذات مجد وحضارة وقدرات .

لقد قال مارشال فوش « ان الجيش الذى يريد أن يفوز بالنصر لابد أن تتوفر لديه عوامل من الدرجة الأولى أهمها عامل القيادة » و « وان الرجل الذى يتولى ادارة المعركة لابد أن يكون ذا موهبة خاصة هى القدرة على القيادة » والمثنى حين وصل الى مرتبة القيادة العظيمة لم يكن قد ولد قائدا ، وانما هيأته الظروف المحيطة به ، وساعدته ، وأثارت صفات القيادة الكامنة فى نفسه فصار عظيما لقد أتقن المثنى مهنته اتقانا تاما ، اذ أنه تعلم فن

الحرب من البيئة التى عاش فيها ، وشهد وهو حـدث قصص الحروب التى خاضها أهله وعشيرته وقومه ، وسمع عن القتال العنيف الذى كانت قبيلته طرفا فيه ، وهكذا نشأ مشبعا بفكرة الحرب مشدودا الى الميدان بعقله ، وفكره وأعصابه حتى اذا ما دخل المعارك وخاض غمارها استطاع أن يثبت وجوده وأن يؤكد عبقريته وأن يقفز باسـمه الى مكانة سامية بين القـادة أجمعين .

ونحن فى حديثنا القـادم سنتناول المثنى القائد بالحديث من زاويتين ..

الأولى — فن القيادة ومميزاتها وسماتها وشخصية القائد .

الثانية — مبادىء الحرب وأصولها فى حروب المثنى .

المثنى وفن القيادة

المثنى والقيادة ..

ان الفن الحربى مع تطوره وتطور الأسلحة وتطور وسائل القتال يرتبط ارتباطا وثيقا بالقائد الذى يتولى قيادة الجيش .. والقيادة الناجحة لا غنى عنها فى أى حرب ناجحة فهى من عوامل الدرجة الأولى التى يرجع اليها النصر فى أية معركة .

والقيادة فن لا يمكن مشاهدته ولكن يمكن التعرف عليه بآثاره ونتائجه ، وأن تعبئة آلاف الجنود ليست بالمهمة الرئيسية فى تجهيز الجيوش ، ولكن المهم هو وجود القائد الكفء فعلى قدر كفاءته تكون كفاءة رجاله .. وتاريخ الحروب يؤكد أن القائد الجيد هو الذى يحرز النصر .. والمقصود بجودة القائد وبكفاءته ما تكون عليه روحه ومشاعره وتجاربه وصلاته بالجند وكيفما يكون القائد تكون جنوده ، فان القوات تتأثر الى حد كبير بالقائد وبسلوكه وبالمثل التى يقدمها لهم ... ولقد تولى المثنى ابن حارثة قيادة الجيش العربى الاسلامى فى حربه ضد بلاد الفرس وكان أول قائد عربى يتجه الى هذه البلاد ويوجه نظر الخليفة أبى بكر اليها ، ثم يمهد أمامه سبل ارسال الجيوش حتى اذا ما قضى أبو بكر اتجه بآماله ورغباته الى الخليفة عمر ، وظل يحبب اليه مهمة اتمام الغزو فاستجاب له وتم فى عهده غزو العراق .

ولقد نجح المثنى كقائد واستطاع أن يحتل مكانة مرموقة بين القادة ومرد ذلك أنه كانت تتوافر لديه صفات القيادة ومواهب القائد وعناصر الشخصية ... ونحن من دراستنا للصفات والمواهب التى تميز بها العسكريون فى مختلف العصور نجد أن هناك شبه اجماع على صفات معينة لابد أن تتوافر فى القائد .. منها الايمان والثقة والارادة والمثابرة والاهتمام بالجند ومواجهة الحقائق والقدرة والشخصية والشجاعة والارادة الصحيحة وسعة الحيلة وانكار الذات وبعد النظر ، ولقد أجمع الرواة وكذلك المؤرخون على أن المثنى كان شجاعا مقداما يتصف بما اجتمع عليه الرأى ، وان المعارك الدموية التى خاضها وقذف بنفسه فى أوارها ونتائج تلك المعارك الفاصلة وما صارت اليه من النصر الحاسم لتؤيد أقوالهم وتؤكد صدقها .

ومن ألزم ما يجب توافره لدى القائد الشخصية القوية وليس من السهل تعريفها تعريفا علميا كاملا فالبعض يقول انها مجموعة صفات جسمية وعقلية وخلقية يتصف بها الانسان ... والشخصية هى صفة نسبية وقوى متنوعة تختلف فى نوعها وقدرتها باختلاف الأشخاص ولا تعرف الا بآثارها ومظاهرها وللشخصية مظاهر متعددة مثل .. الخلق والثقة بالنفس والاعتماد عليها وقوة الارادة والتصميم والقدرة والجاذبية ، ونحن حين ندرس شخصية المثنى نجد أن عناصر الشخصية قد توافرت عنده وتعددت حتى جعلت منه قائدا يتميز عن غيره من القادة بالشخصية القيادية القوية .

هذا فوق أن القادة العظماء الذين خلدهم التاريخ لم يولدوا كذلك ولكنهم خلقوا هـذه العظمة ، لأنهم اكتسبوا مهنتهم وأتقنوها ، ولا يستطيع فرد أن ينكر أن البيئة التى نشأ فيها المثنى كانت ذات أثر كبير عليه ، مما أدى الى ابراز صفات القيادة ومواهبها .. فهو قد شب بين بنى شيبان وهؤلاء كانوا بين العرب مثلا فى القوة والعزة والأنفة والاباء والشمم فغرسوا فى نفس ابنهم التصلب بالعقيدة والجود بالنفس والصدق فى العزيمة ، والتفنن فى ضروب الفروسية والاستماتة فى الحرب ، والفراسة فى تعبئة الجيوش... وهذه البيئة التى عاش فيها المثنى خاضت غمار معارك كثيرة شهدها وعاشها فأكسبته الكفاءة والمقدرة والخبرة بأساليب الحرب ودراسة النفسيات العسكرية مما دفعه الى أن يرمى بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويقاتل الفرس ويثبت دعائم الاسلام فى ربوع السواد والعراق .

اذن ما هى الصفات والمواهب ومظاهر الشخصية التى جعلت من المثنى قائدا ممتازا له فى تاريخ الحروب سجل مشرف مشرق .

ان الباحث عن سر النجاح الكبير الذى أحرزه المثنى يجد أنه يكمن فى مدى **ايمانه العميق** ، فمما لا شك فيه أن قوة الايمان هى التى تدفع الى النصر والمتتبع لتاريخ الحروب يلمس أن النصر كان حليف من هم أقوى ايمانا وأثبت عقيدة .

ولقد دخل الايمان قلب المثنى وملأ نفسه منذ سمع بدعوة الرسول الكريم حين خرج ومعه على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق ليعرض بنفسه على قبائل العرب دعوته ، فقد نزل الرسول

وصاحباه بمجلس عليه السكينة والوقار يضم كبار رجال بنى شيبان ومن بينهم المثنى بن حارثة وتحدث اليهم الرسول الكريم فقال « أدعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له وأنى رسول الله ، وأن تؤونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به ، فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد » ، واستمع القوم الى الرسول الكريم وهو يتلو بعض آيات القرآن واستمع اليها معهم المثنى وتجاوبت نفسه مع الدين الجديد وتفهم فى عمق رسالته ، ووقع القرآن فى نفسه موقعا حسنا ، ووجد أن كلمة الحق تدوى فى أرجائه ، فاتجه بجوارحه ومشاعره وأحاسيسه الى الرسول تلتقط أذناه كل كلمة حتى اذا ما انتهى الرسول من عرضه قال له المثنى « قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا آخا قريش وأعجبنى ما تكلمت به » . وتمر الأيام واذا بالمثنى يجد دين محمد فى اتساع ورجاله فى كثرة وقريش والقبائل الأخرى تنهزم أمامه مرة وراء الأخرى وتعجز عن صد الدين الجديد فيقع الاسلام فى قلبه ويستجيب له ويؤمن به ايمانا عميقا يمنعه حين يرتد قومه من أن يرتد وانما يظل على دينه وينضم الى جيوش المسلمين التى جاءت تحارب المرتدين فى البحرين بقيادة العلاء بن الحضرمى ويعاونه معاونة صادقة فى القضاء على المرتدين ثم لا يقف عند هذه الحدود وانما يسير على رأس جيش ينشره على طول ساحل البحر ويتلقى المنهزمين ويصدهم ويفتك بهم حتى تمتد انتصاراته على طول خليج البصرة حتى هجروا

الأراضى الشمالية والقطيف وحتى تبلغ قواته دلتا الفرات .
وهكذا دفعه الايمان القوى الذى كان راسخا فى صدره الى اعلاء كلمة الله وانتصار الشريعة السمحاء، كما دفع بتفكيره ناحية أرض السواد فتقدم اليها مغيرا عليها يعرض الاسلام على أهلها ويحطم قواعد العرش الفارسى ويهد ملكهم ويزلزل كيانهم ويقضى عليهم..
والايمان هو الذى جعله يلقى الرعب فى قلوب أهل السواد فتنهار معنوياتهم وتضعف قواهم ويستسلمون حين يشتد اللقاء ويعنف القتال وهو الذى جعله ينتقل الى الخليفة فى المدينة يعرض عليه صورة لوقائعه ويرغبه فى غزو العراق ويهون عليه أمرها ويغريه ببلاد الفرس ، فلما استجاب له وسير اليه خالد بن الوليد رضخ تحت تأثير ايمانه لأوامر أبى بكر فعمل تحت امرة خالد — وقد كان قائدا للجيش قبل مجيئه — كجندى بسيط متواضع وهو الذى جعله يواجه جيوش هرمز فى قوة وصبر بقواته الضئيلة بعد أن خاطب كسرى بقوله « انما أنت أحد رجلين ، اما باغ فذلك شر لك وخير لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك » . وهو الذى جعل يقاتل جيشا يفوقه عددا وعدة فى بابل وفى غيرها من المعارك فينتصر انتصارا ساحا وينقل آية المجد من أبطال الفيل الى أبطال الخيل والجمال . وهو الذى جعله يتجه الى عمر بن الخطاب يطلب منه أن يتمم رسالة أبى بكر ويخاطب الناس الذين كانوا يخشون الخروج الى العراق « لقد

تبجبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ما شاء الله ما بعدها » .

وهو الذى جعله يرضـخ مرة أخرى لرغبة الخليفة فيعتزل القيادة ويعمل جنديا بسيطا متواضعا تحت امرة أبى عبيد ولولا وفاته لرضخ تحت تأثير ايمانه لامرة سـعد بن أبى وقاص دون أن يكون لذلك أدنى أثر فى نفسه فهو قد وهب نفسه وحيـاته للجهـاد فى سبيل الله تحت تأثير ايمانه العميق بالدين الجديد هذا الايمان الذى ذهب به فى التضحية والايثار مذهبا لم تعرفه الحياة لغيره من الأبطال والذى سما به عن الحياة فما كان يكترث لشىء فيها أو ييأس على فائت منها . وهو الذى جعله يعيش حياته متجها الى الله يستمد منه العون والقوة فى جميع مواقعه ومعاركه وغاراته وكان مبدؤه الذى عاش عليه حياته هو تلك الكلمات التى قالها لجنده فى مناسبات مختلفة « ثقوا بالله وأحسنوا به الظن » و « عاداتكم فى أمثالكم انصروا الله ينصركم » و « يا أيها الناس احمـدوا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان » .

ان الثقة بالنفس والاعتماد عليها من أهـم عناصر تكوين شخصية القائد ، فمتى وجدت الثقة بالنفس أصبح من السـهل الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن والثقة تتولد نتيجة للعلم والمعرفة والمقدرة . والمثنى بن حارثة حين فكر فى القيام بغاراته المتعددة على بلاد السواد كان واثقا بنفسه مقتنعا بأنه سوف ينتصر فى هذه العمليات التى حمل نفسه عبء القيام بها ، ولعل ثقته جاءت

نتيجة للدراسات الكبيرة المتعددة التى قام بها عن أهل السواد وأحوالهم وعرف منها أنهم يعيشون حياة اجتماعية منحلة منفرة ، وأنهم يسعون الى حياة أفضل من تلك التى يعيشونها . لقد درس المثنى حياة أهل السواد دراسة عميقة مستندا فى ذلك على الخبرة الشخصية الصحيحة .

وثمة سبب آخر دفع بالثقة الى نفس المثنى فهو قد سمع بما وعد الله به المؤمنين على يد رسوله الأعظم حين صرح لهم صلوات الله عليه فى غزوة بدر بأن لاحت له أنوار قصور الحيرة ومدائن كسرى وقصور الروم بشارة له من الله بأنها ستفتح على يد أصحابه وستأخذ بهدايته .

ولا شك فى أن ثقة المثنى بنفسه هى التى جعلته يتجه الى أبى بكر يدعوه الى غزو العراق والى امداده بالجند حتى يستطيع أن يواجه الفرس وأن يقضى عليهم ، ثم هى التى جعلته يواصل السعى لدى عمر حتى أقنعه بارسال أبى عبيد الى العراق ليتمم الرسالة التى بدأت فى عهد أبى بكر ، ثم هى التى جعلته يسعى من جديد لاقناع عمر بارسال جيش لمواجهة الفرس بعد أن تجمعت كلمتهم واتحدت طوائفهم وذهب خلافهم واتفقوا على محاربة المسلمين والقضاء عليهم وطردهم خارج ديارهم أو اغراقهم فى الفرات .

ومما لا يختلف فيه اثنان ان الناس يثقون بمن يثق فى نفسه ، ولهذا كان واضحا أن جند المثنى قد وضعوا ثقتهم الكبيرة به ، وليس أدل على صحة ذلك من أنهم حاربوا معه وبجانبه ولازموه

فى معاركه المختلفة وغاراته المتعددة وشـاركوه متاعب المعركة وجهدها وقاسموه حلوها ومرها .

ان قوة الارادة من العوامل الهامة للنصر فى المعركة .. فالقائد صاحب الارادة القوية هو الذى يستطيع أن يسيّر أمور المعركة ويحركها حسب رغبته وهو الذى يستطيع أن يخوض المعـركة بثقة وأمل وعـزم وتصميم ، وهو الذى يستطيع أن يخرج منها منتصرا قويا .

والمثنى كان كما يبـدو من تاريخه قوى الارادة وحيـاته العسكرية كلها أدلة واضحة على قوة ارادته ، فهو حين درس أحوال العـرب الذين كانوا يقيمون بالسـواد على حـدود بلاد الفرس وحين أحس أنهم يعيشون حيـاة مذلة وهوان رأى أن يحارب الفرس وأن ينقـذ هؤلاء مما هم فيه فشن غاراته المتعددة على دهشتنا باذ أردشير والأبلة والحيرة ، وألقى الرعب فى قلوب ساكنيها وشجع القبائل العربية على النفور والتمرد وحمل السلاح ضد الفرس . والمثنى حين استمر فى هجومه على أرض السواد ومواجهته للأعداء فى المواقع المختلفة المتوالية كان يؤكد قوة ارادته وتصميمه القاطع على الوصـول الى هدفه وتحقيق ما يجيش فى صدره من آمال وأحلام ... والمثنى حين تناسى اصابته البالغة فى موقعة الجسر وظل يقاتل ويؤدى دوره فى المعركة انما كان يقدم المثل والدليل على قوة ارادته وعلى رغبته وتصميمه على الاستمرار فى المعركة رغم كل الظروف حتى الحصول على النصر .

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الجند دائما ينظرون الى القائد

ويتمثلون به ويعملون كما يعمل ويعيشون حياتهم كما يعيش ، فهو مثلهم ورائدهم فى كل حركة وفى كل عمــل وفى كل تصرف ، والجنود عادة يصوغون أنفسهم فى القالب الذى يصــوغه لهم القائد اذا نال هذا القائد احترامهم وتقديرهم ... والمثنى كان دون شك قدوة طيبة لجنـده بدليل أنهم قدروا فيه رجولته وخلقه وشخصيته ومظهره ومقدرته ، وبدليل أنهم كانوا فخورين به الى حد الزهو لأنهم شاطروه مجده فى ميادين القتال وقاسموه انتصاراته وحملوا معه عبء الهزيمة حين هزم المسلمون فى موقعة الجسر . وكان المثنى لا يكتفى بوضع الخطط وانما كان يشارك فى تنفيذها شأنه فى ذلك شأن أقل جندى ، فما من معركة خاضها رجاله الا وكان هو فى المقدمة وعلى رأس الجيش .. انه حين بعث فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على أحياء تغلب والنمر بصفين ، لم يهدأ بالا لأنه لم يشترك معهما فى الاغارة ، ولم يلبث أن امتطى صهوة فرسه ولحق بهما بعد أن خلف على الناس عمر بن أبى سلمى الهجينى وكان المثنى اذا ما وضع يده على المغانم والمكاسب يقوم بتوزيع نصيب الجند عليهم لا يحتفظ لنفسه بشىء ولا يحرم جنده من حقهم فيها وكان كأى قائد ناجح يقدر رجاله ويعطيهم حقهم ويمنحهم الفرصة لاظهار مواهبهم فهو حين كلف بمطاردة هرمز اعترض طريقه حصن المرأة ورأى أن الاستيلاء على هذا الحصن قد يعطله عن هدفه الرئيسى بعض الوقت ، فأسند أمر حصار الحصن الى أخيه المعنى وتقدم هو الى هدفه .. وهو حين أراد أن يخرج الى المدينة لمقابلة أبى بكر خلف

على الجند بشير بن الخصاصية وهو كذلك فى موقعة البـويب يستعين ببشر بن أبى رهم والنسير ومذعور ، وهو حين أحس بدنو أجله ترك مقاليد الأمور فى الجيش لبشير بن الخصاصية ليتولى شئون الجيش حتى يصل القائد الجـديد سـعد ابن أبى وقاص . ولم يكن المثنى ليحجم فى الوقت الذى يكون فيه التقدم واجبا ، فهو مثلا فى بابل حين وجد صفوف جنده تضطرب وتختل نتيجة لوجود فيل كبير فى جيش عدوه قرر قتل هـذا الفيل ، ولكن من الذى يجسر على مواجهة هذا الحيوان الضخم الذى يثير منظره الرعب فى نفوس العرب .. وكيف يمكن قتـل هذا الحيـوان وتخليص العرب من شروره ؟ ، ان المثنى أحس بالمهمة الخطيرة فأبى أن يسندها الى واحد من رجاله ، وقرر أن يقوم هو بها ليكون قدوة ومثلا فى الاقدام والشجاعة فتقدم نحو الفيل وأخذ يحاوره وهو ينهال عليه طعنا بالرمح حتى أصابه فى مقتل ، وأنقذ المسلمين من عدو كان يفرق جموعهم ويشتت صفوفهم . وتظهر قدوة المثنى مرة أخرى فى موقعة الجسر حين رأى ما عليه المسلمون من غم وهم بسبب قطع الجسر فأسرع الى عروة بن مسعود يأمره بأن يشد الجسر ، وأن يمنع ما بينه وما بين العجم ، ثم تولى هو مهمة مهاجمة الفرس ومعه جمـاعة من الفرسان ، وكان يصيح فى الناس « يا معشر العرب أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تفرقوا أنفسكم » . كما أثبت المثنى أنه قدوة طيبة فى تنفيذ الأوامر والسمع والطاعة حين جاءه وهو القائد المنتصر أمر الخليفة بأن يترك مقاليد القيادة لأبى عبيد فقبل ونفذه

دون ضيق أو تبرم أو ملل ، فهو يعرف أنه جنـدى يؤدى رسالة ألقيت على عاتقه وعلى عاتق زملائه المسلمين ، وأنه يجب أن يقوم كل فرد بواجبه سواء كان فى مرتبة القيادة أو فى صفوف الجند .

وكان المثنى يتميز بصفة انسانية كبيرة فقد كان يعمل فى صمت ايمانا منه بأن العمل فى صمت هو سبيل النجاح ، ومن هنا ظهرت حقيقته للناس فقدروا كفاءته واعترفوا بشخصيته ومقدرته ..

فالمثنى الذى انتصر فى جميع معاركه لم تمتلىء نفسه بالغرور، ولم يتظاهر بالتكلف أو التصنع ولم يتعال على جنده ، وانما عاش معهم كواحد منهم حتى أحس جنده بأنه رجل صادق الحس حسن البصيرة جيد التقدير يحكم على الأمور بفهم لا يأخذ بالمظاهر والقشور يضبط نفسه ولا تثيره الصغائر ولا تفقـده الكبائر الصواب .

كان المثنى محرر النفس من **التعاظم والكبرياء والغطرسة والمظاهر الكاذبة** وكان يبدو أمام الناس على حقيقته فلا يلبس غير ثوبه ولا يبدو فى مظهر ليس له ، ولا يدعى القول ولا يعطى لنفسه من التصوير ما لا يستحق . ولعل أعظم دليل وأسطع برهان على تواضعه ما حدث بعد انتصاره العظيم فى موقعة البويب ، اذ اجتمع مع جنده يتجاذبون الحديث ويتسامرون وهم مغتبطون بالانتصار ، وتذكر المثنى وهو فى جلسته هذه بعض الجنـد المسلمين الذين قتلوا عنـد الجسر حين قطعه ليمنع الفرس من اجتياز النهر فاستماتوا وقتـلوا كثيرا من المسلمين فقال المثنى

لرجاله « لقد عجزت عجزه » ، ثم يقول « فانى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى فانها كانت منى زلة » .. قائد يعترف لجنده فى مثل هذه الصراحة بأنه قد أخطأ ، ثم يدعوهم الى عدم الاقتداء به ، ثم يعدهم ألا يعود الى هذا الخطأ مرة أخرى .. ان هذا القائد بهذا التصرف يؤكد تواضعه ومعرفته قدر نفسه ، ووصوله الى مرتبة من التواضع لا يدانيه فيها أحد .. انه قد ندم على ما فعل ثم جمع جنده ولم يخجل من أن يتحدث أمامهم عن خطئه وأن يوضحه لهم حتى يستفيدوا منه فلا يقعوا هم فيه .

وانظر الى تواضعه الذى تتجلى فيه روح المساواة بأجلى مظاهرها فهو فى موقعة البويب يمر بين الصفوف يحادث جنده ويشجعهم ويحثهم على القتال ويقول لكل منهم « والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء الا وهو يسرنى لعامتكم » .

اتفق القادة على أن أية معركة تستلزم من القائد قبل أن يخوضها **تقدير موقفه وموقف أعدائه** ، بناء على هذا التقدير يضع الخطة التى يواجه بها عدوه وتقدير الموقف من العمليات الشاقة التى تحتاج الى جهد ووضوح ومقدرة وفهم ، والقائد الكفء هو الذى يستطيع أن يقدر الموقف تقديرا صائبا سليما . ولقد تميز المثنى القائد بحسن تقديره للموقف تقديرا يؤهله لأن يدخل المعركة مطمئنا الى نتيجتها .. فهو فى بابل يرى أن وجود الفيل خطر على قواته ، وفى موقعة الجسر وجد أن قطع الجسر مضيعة لجنده ، فيقدر الموقف بسرعة ويقرر قتل الفيل لأن فى قتله

رفعا لمعنويات جنده ويقرر شد الجسر لأن فى شده اسعافا للمسلمين المتقهقرين .

كما أنه حين وصلته الأخبار عن الفرس بعد موقعة النمارق ، ويعلم أن القائد نرسى موجود بقواته فى كسكر فى انتظار وصول المدد اليه بقيادة الجالينوس فيقدر الموقف بسرعة ويرى أنه يجب الاسراع بمقابلة نرسى ومقاتلته والقضاء عليه قبل أن تصله الامدادات فتزيد من قوته وتقوى جبهته فتصمد أمام المسلمين وتحتاج الى جهد أكبر للقضاء عليها ويشير بذلك على أبى عبيد قائد الجيش .. وبهذا التقدير الصائب للموقف انتصر المسلمون فى السقاطية ثم فى باروسما .

وفى موقعة الجسر ثبت أن المثنى استطاع أن يقدر الموقف تقديرا صائبا سليما حينما عرض الفرس على أبى عبيد أن يعبروا اليه النهر أو يدعهم يعبرون اليه ، فقد كان المثنى يرى أن يعبر الفرس النهر دون العرب وعرض هذا الرأى على أبى عبيد فضرب به عرض الحائط ، وصمم على أن يعبر المسلمون وأمر جنده بالعبور فترتب على ذلك أن حلت بالمسلمين مصيبة كبيرة وهزيمة مروعة ونهاية مرة لما كان يخفيه الفرس من المكيدة والغدر للمسلمين اذ هاجموهم خلال عبورهم النهر وأوقعوا بهم الهزيمة وأصابوهم اصابات عنيفة .

ولقد ترك المثنى عندما أحس بدنو أجله رسالته لسعد ابن أبى وقاص تؤكد فراسته وصدقه وحسن تقديره للموقف فهو يدعو سعدا الى أن يلازم بجنده مراكزهم على حدود الصحراء حتى

تحمى الصحراء ظهورهم فى حالة انتصار العدو عليهم ولتكون لهم قاعدة يهاجمون منها عدوهم اذا هزم أمامهم والمثنى وهو يترك هذه الوصية يعرف تماما أن الفرس لا يجيدون حرب الصحراء ، كما أن العرب لا يجيدون القتال فى داخل المدن وهو بذلك يهيىء للعرب الميدان المناسب للمعركة حيث تستطيع طبيعتهم أن تنتصر.

كان المثنى من القادة العظماء الذين انقطع نظيرهم ، وقد تفرد بخلال لم تتوفر فى غيره .. **كالمقدرة .. والكفاءة .. والخبرة بأساليب الحرب** ، ومن أهم ما يتميز به **الاقدام** .. وقد دفعه الاقدام الى أن يوسع نطاق الفتح وأن يستثمر الفوز بدحر الأعداء ، ويرمى بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويقضى على هذا الملك الطويل العريض ، وما زال المثنى يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من أهل العراق ويثبت دعائم الاسلام حتى أصبحت بلاد الفرس جزءا من الأمة العربية تمثل قطاعا هاما من قطاعاتها .

ومن عجب أنه لم يخض غمار الحرب ليبلغ وطرا أو يقضى لبانة فى نفسه فقد كان همه الأول بل الأكبر نصرة المسلمين واعلاء كلمة العرب ، وان حياته الطويلة فى ميدان الحرب منذ بدأ غاراته الى أن استعان بالخليفة أبى بكر ثم بالخليفة عمر الى أن انتقل الى جوار ربه تؤكد اقدامه الذى فاق به أقرانه فمنذ أحس بواجبه ناحية الاسلام وهو يجاهد فى سبيله حتى أصيب فى الجسر اصابة كانت السبب المباشر فى موته .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المثنى كان **قائدا قوميا** يؤمن بقوميته

ويتفانى فى سبيلها ، فقضى حياته مجاهدا فى سبيل نصرة العرب منكرا ذاته من أجل مصـــالح قومه . وكانت قوميته من أكبر معنوياته فهى التى مهدت له سبيل الحصول على الزعامة بين قومه فغدا زعيما عظيما احتل مكانة مرموقة فى تاريخ العرب . وهى التى دعت كثيرا من القبائل النصرانية التى يجرى فى عروقها الـــدم العربى لتنضم اليه وتحتمل الأخطار وتحارب تحت لوائه وتلقى الموت تحت رايته فداء لقوميتهم التى كانت تغلى مراجلها فى صدر المثنى ... ففى موقعة الجسر مثلا انضم حرصلة بن المنذر الطائى المكنى بأبى زيد الشاعر النصرانى الى قوات المسلمين ليحارب معهم الفرس أعداء العرب وقد عز عليه أن ينخذل قومه وينتصر عليهم من يختلفون عنهم لغة وتاريخا وقومية ومسكنا ودما .

والمثنى بدافع من قوميته خاطب أنس بن هـــلال النمرى « يا أنس انك امرؤ عربى ، وان لم تكن على ديننا فاذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » . وخاطب أيضا ابن مردى الفهر ونصارى بنى تغلب ليجمع القومية العربية جميعا ضـــد أعدائها الفرس .. واستطاع هؤلاء الذين جمعهم المثنى تحت راية القومية العربية أن يحرزوا نصرا عظيما فى البويب فأزالوا من الأذهان الهزيمة المرة التى منى بها العرب فى الجسر .

وفوق ذلك كله عرف عن المثنى أنه كان ذا همة قعساء ، **وعزيمة ماضية .. وارادة صلبة .. ونشـــاط مستمر .. ورباط جاش .. وثبات قلب .. وبعد نظر وأنه كان يقظا .. حسن المظهر . شجاعا .. حازما غيورا على عمـــله .. قوى التـــأثير فى جنده .**

مرحا .. نزيها حكيما .. عادلا .. منكرا لذاته .. انه كان عـلى درجة من **الذكاء** تمكنه من أن يتغلب على ما يواجهه من مشكلاته كتلك المشكلات التى اعترضته حين كان يغير على سوق بغداد وصفين . وانه كان يؤمن **بالولاء** .. وكان يشارك جنده مشاعرهم وأحاسيسهم .. وأفراحهم وأتراحهـم .. وكان يتجنب العنـاية بمصالحه وراحته على حساب الآخرين .. وكان يثير الحماس فى نفوس جنده ويدفعهم الى التعلق بالنصر مهما كانت ظـروف المعركة .. وانه كان **متفائلا** يفكر فى النجاح لا فى الفشل .. ينظر الى الأشياء بعين الأمل لا بعين اليأس والقنوط يفكر فى النصر دون الهزيمة وفى المبادأة بالهجوم دون الدفاع كما أن عاطفته لم تؤثر فى تصرفاته أو أفعاله وانما كان يزن الأمور ويقدر الأشياء ويؤمن بالعـدل والمساواة ولم يفقد سيطرته عـلى مشاعره وعواطفه ولم يأخذ الأمور بالمظاهر ، وانما كان يتعمق فى حقائقها ويبحث عن أصولها .

المثنى فى ميدان المعركة

مبادىء الحرب وأصولها

للحرب أصول ومبادىء يجب أن يضعها القائد أمام ناظريه قبل أن يخوض غمار المعركة ، وهذه الأصول والمبادىء لا تتأثر باختلاف السلاح أو أرض المعركة أو طبيعة المحاربين ، وقد اتفق الكتاب العسكريون على أن هذه المبادىء والأصول ثابتة لا تتغير وانها تراعى فى كل الحروب ، وان الطرف الذى يهتم بها ويدخل المعركة على أساسها يضمن النصر الى جانبه وان مخالفة هــذه المبادىء والأصول أو الجهل بها قد يؤدى الى وقوع الهزيمة . وهذا الاجماع ينطبق على حروب المثنى . فحروبه برغم بداءة السلاح قد قامت أساسا على هذه الاصول والمبادىء ، وقد يكون هذا مستغربا ولكن الواقع والحقيقة يؤكدان أن المثنى برغم أنه لم يدرس هذه الأصول والمبادىء فى مدرسة أو كلية عسكرية كما يحدث فى التاريخ الحديث كان ملما بها لأن احساسه كقائد دفعه الى الدخول فى المعارك معتمدا عليها ، ولهذا يؤكد التاريخ أن المثنى نجح كقائد لأنه استطاع أن يخوض غمار معارك ضخمة وكبيرة ضد عدو يفوقه فى العدد والعدة والاستعداد ، واستطاع أن يفوز فى هذه المعارك وأن يعقد لنفسه لواء النصر وأن يوقع الهزيمة بأعدائه .. وان انتصاره فى هذه المعارك يرجع أصلا الى

تمسكه واتباعه مبادىء الحرب وأصولها كما سنوضحه فى السطور التاليـــة .

كان المثنى يهتم بجمع المعلومات عن عدوه قبل أن يلاقيه فى ميدان المعركة ، وجمع المعلومات يسمى **بالاستكشـاف** وكان يعنى الحصول على كل ما فى الاستطاعة من معلومات عن العدو ... عن أحواله وظروفه وعدد قواته . وسلاحه .. ثم عن الأرض التى ستدور عليها المعركة والاستكشاف كان معروفا عند العرب باسم الاستطلاع ، وكانت جماعات الاستكشاف تسمى فى عهدهـم العيون وكانت دراسة أحوال الفرس هى أول ما خطر ببال المثنى حين فكر فى القيام بغاراته ضدهم ، ولهذا نجده يســعى الى الحصول على معلومات عن أحوالهم وعلى معلومات عن العرب الذين يعيشون فى أرض السواد وعلى معلومات عن العلاقات القائمة بين الفرس والعرب . وتوفرت عنده معلومات كثيرة وضعها موضع الدراسة العميقة مستندا فى دراستها على الخبرة الشخصية.. فماذا تبين له من هذه المعلومات :

ان العجم يعيشون فى اضطراب دائم ، والبيت المالك عندهم فى نزاع مستمر . وبأنهم يسيمون العرب الأذى والظلم .

وان العرب يتعرضون لغارات العجم الذين يستغلون ملوك الحيرة الخاضعين لسلطانهم وان قلوبهم نافرة من ظلم العجم . وانهم على استعداد نفسى ومعنوى للتمرد وحمل السلاح فى وجه العجـم .

وكانت هــذه المعلومات كافية لكى يجمع المثنى جمـوعه

ويتجهز لدخول معارك متتالية ضد الفرس وهو متأكد أن جبهتهم مضطربة وأن أحوالهم سيئة ، وأن ظروفهم تمهد له طريق النصر والفـوز .

وفى موقعة السقاطية تجمعت لدى المثنى معلومات تفيد بأن الجالينوس فى طريقه الى كسكر لمعاونة نرسى الذى يتواجد هناك على رأس قوات قليلة العدد ويترقب وصول النجدة اليه فى قلق واضطراب وخوف من أن تدهمه قوة العرب قبل وصول النجدة .. وبهذه المعلومات رأى المثنى الا تضيع منه فرصة القضاء عـلى نرسى قبل وصول الجالينوس ، وهاجمت قواته نرسى وانتصرت عليه ولاذ نرسى بالفرار وأصبحت القوات العربية جاهزة لملاقاة الجالينوس وحده وكانت كفة النصر قد رجحت لها منذ أول لقاء معه ، ففر من المعركة فى باروسيا .

وما أن انتهت معركة البويب حتى أطلق المثنى قواته الخفيفة الحركة (الخيالة) لتقوم باستطلاعات بعيدة المدى وحدد لهـا مهمتها وطلب منها أن تأتيه بمعلومات عن قواعد الفرس التى يتموتون منها ومراكزهم التى يستندون اليها والأسواق الغاصة بالذخيرة والميرة .

والتقى المثنى فى أليس برجلين أحدهما من الأنبار والآخـر من الحيرة فاجتمع بهما وسألهما ودلّه الانبارى على سـوق الخنافس والحيرى على سوق بغداد ، ثم كانت غاراته على سوق الخنافس وبغداد نتيجة مباشرة للمعلومات التى حصل عليها من الرجلـين .

ولقد استفاد المثنى من أسرى بنى تغلب الذين وقعوا فى يده فى أثناء تقدمه الى صفين ، فحين ضل طريقه ، وكاد رجاله يهلكون طلب من الأسرى أن يدلوه على الطريق ، وأمن أحدهم على أهله وماله فدله على حى تغلب حيث وضع سيفه فيهم بعد ذلك وغنم مغانم كثيرة .

وبجانب الاستكشاف يبرز عنصر **الحشد** وهو من أشهر مبادىء الحرب له تأثير سريع ونتائج فعالة وهو يعنى جمع القوات على قدر الاستطاعة على أن تعمل بكل ما لديها من طاقات ، والتاريخ حافل بأمثلة الحشد الكثيرة ، والأطراف التى تدخل المعركة بقوات كثيفة يكون النصر فى أغلب الأحوال فى جانبها اذا توفرت بجانب الحشد عوامل أخرى كالروح المعنوية وحسن التنظيم والاعداد ، وكفاءة القيادة ، وكفاءة الخطة .

ولم يغب عن بال المثنى أهمية هذا المبدأ ، فالواضح أنه كان فى جميع معاركه يسعى الى حشد أكبر قوة ضاربة تحت قيادته . وحين قرر القيام بالغارات المتعددة على أرض السواد ، حرص على أن تتوافر لديه قوة عددية كبيرة بلغت ثمانية آلاف من قومه وهو عدد لا يستهان به فى وقته . وحين لجأ الى أبى بكر يطلب منه العون ، وحين لجأ الى عمر يطلب منه العون أيضا كان يهدف الى تجميع قوة كبيرة تحت قيادته ليخوض بها معاركه .. أى أنه كان يحرص دائما أن تكون قواته أكثر عددا من قوات عدوه .

ويلاحظ أنه حين أراد خالد أن يسير من العراق الى الشام جعل ضمن رجاله معظم الصحابة ، وكان المثنى يرى أن وجود

بعضهم ضمن محاربيه يكون ذا أثر كبير على معنويات جنده ، ولهذا تمسك بأن يبقى بعضهم معه فقال لخالد « والله لا أقيم الا على انفاذ أمر أبى بكر فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر الا بهم فأنى تعريني منهم ؟ » ، ولما كان خالد على علم تام بأهمية الحشد المعنوى فقد وافق على مراضاة المثنى وأعطاه ما أراد .

وخطبة المثنى فى المدينة عندما اجتمع عمر بالناس يدعوهم الى الخروج الى العراق دليل على اهتمامه الكبير بالحشد وادراكه لأهميته حتى أن أبا عبيد بن مسعود الثقفى وسعد بن عبد الله الأنصارى استجابا للدعوة عندما استمعا الى خطبة المثنى التى بدأها بقوله « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه » ، واستجاب له من بعدهما خمسة آلاف عربى تطوعوا للجهاد فى العراق .

وأدرك الخليفة عمر أهمية الحشد وأثره بالنسبة للدور الكبير الذى تقوم به القوات العربية فى فارس ، فدعا قبل معركة البويب — حين أبلغه المثنى أن حشوده قليلة وأن موقفه حرج — الى الخروج الى العراق وجمع أبناء بنى بجيلة وكانوا متفرقين فى القبائل ووعدهم بأن يكون لهم ربع ما غلبوا عليه كما رغب عمر جماعة من الأزد وجماعة أخرى من بنى كنانة كانوا يريدون غزو الشام فى التوجه الى العراق .

وتكررت معاونة الخليفة عمر لقوات المثنى بارسال الامدادات لها حين أرسل اليه المثنى يبلغه اتحاد كلمة الفرس وحشدهم

القوات الضخمة وقلة عدد جنوده واستعداد أهل السواد للثورة عليه وحاجته الملحة الى قوات كثيفة تعاونه وتشد من أزره ، وبذل عمر جهدا كبيرا حتى أنه جهز جيشا ضخما ، وأراد أن يسير على رأسه الى العراق لولا أن عارضه فى ذلك الصحابة فولى سعد ابن أبى وقاص قيادته .

ودعوة المثنى لنصارى بنى تغلب والنمر تعنى أنه كان يسعى الى توافر أكبر عدد ممكن واعداد أعظم طاقة لمواجهة الفرس فى موقعة البويب .

واستخدم المثنى فى حروبه عنصر **المفاجأة** يطلق عليه بعض الكتاب العسكريين اسم المباغتة .. ومعناه أن تظهر القوات فى ميدان المعركة فجأة دون الشعور باقترابها مما يؤدى الى حدوث ارتباك ورعب فى صفوف الأعداء فيضطرون الى القتال فى ظروف لا تمكنهم من جمع قواتهم ومواردهم حسبما يتطلب الموقف .

والمفاجأة ذات تأثير معنوى كبير فان وقوعها يدخل الخوف فى نفوس العدو ، ومتى تملكه الخوف أصبح ضعيف الارادة غير قادر على المقاومة أو الصمود .

عندما استعد العلاء بن الحضرمى لمحاربة المرتدين من أهل البحرين انضم اليه المثنى وفاجأ القوم وهم يعاقرون الخمر وقد أصبحوا لاهين عن أنفسهم فأوقع بهم وهزمهم هزيمة منكرة .

ونجاح غارات المثنى على طول ساحل البحر وفى هجر والقطيف حتى وصوله الى دلتا الفرات يرجع أساسا الى مفاجأته لسكان

تلك المناطق فنظام الحرب الذى استخدمه هو الاغارة وهذه تقوم أصلا على المفاجأة والا فقدت أهم مقوماتها .

ومقتل الفيل فى بابل كان مفاجأة للطرفين المحاربين .. كان مفاجأة للعرب فأحسوا أن عقبة كؤودا انزاحت من أمامهم وان مشكلة خطيرة تواجههم انتهت فهاجموا أعداءهم فى قوة وبأس وانتصروا عليهم انتصارا عظيما جرى على لسان أحد شعرائهم فقال ...

يقارعون رءوس العجـم ضـاحية
منهم فوارس لا عـزل ولا ميـل

وكان مفاجأة للفرس لأنهم كانوا يعتمدون على الفيل اعتمادا كبيرا فى تفريق صفوف العرب واثارة الرعب بينهم فلما قتل ضاع الهدف من وراء استخدامه وأصبح عليهم مقابلة العرب وجهـا لوجه .

ومهاجمة نرسى فى باروسما وهو فى معسكره ينتظر وصول المدد ومهاجمة الجالينوس وحده فى السقاطية حققت نصرا كبيرا يرجع الفضل الأول فيه الى مفاجأتهما وهما على غير اسـتعداد لخوض المعركة .

ولقد حرص المثنى خلال تقدمه للهجوم على سوق بغداد على تحقيق المفاجأة ، ولهذا أخفى خبر سيره الى هناك وقال لمرزبان الانبار « انى أريد أن أعبر الى المدائن » ، فأرسل معه الادلاء وعقد له الجسر ليعبر عليه الفرات ، فلما أصبح على مسيرة أربعة فراسخ من بغداد أمر قواته بالمبيت وكلف فرسانه بالقبض على

كل من يعثر عليه حتى لا تصل أخباره الى أهل السوق ، ثم كانت غارته على سوق بغداد ونجاحها .

وغارة المثنى على صفين تعطى صورة لأهمية المفاجأة عنده وقد تمت الغارة والناس جلوس فى أفنية بيوتهم هادئين مطمئنين لا علم لهم بتحركه اليهم .. لقد أخذ الناس على غرة فسلموا وقدموا الأموال وعاد المثنى من هذه الغارة موفور الغنائم .

ولعل من أخطر الأعباء التى تقع على عاتق القائد فى الميدان **ضمان الأمن والسلامة لقواته**، ولذا فالقائد الكفء يضع همه فى وسائل توفير الأمن والسلامة ... والمثنى كان منذ بدأ قتاله يحرص على سلامة قواته وأمنها ونجده فى غالبية مواقعه يتخذ الخطوات الكفيلة بضمان السلامة والأمن .

فعندما تولى رستم قيادة قوات الفرس أعد جيشين ، وجه أحدهما الى الحيرة والآخر الى ذى قار وكتب الى دهاقى السواد أن يثورا بالمسلمين ودس فى كل رستاق رجلا يثور بأهله وكان يهدف بذلك الى احاطة جيش المثنى ومهاجمته من الخلف لقطع خط الرجعة عليه ولقطع خطوط مواصلاته مع الجيش العربى الذى يقوده أبو عبيد .. وفهم المثنى خطط رستم فما كان غافلا عما يرسمه ويخططه فضم مسالحه وانسحب عن طريق الصحراء حتى نزل بخفان وظل بها حتى جاءه أبو عبيد بجيشه .. وهو بانسحابه يضع سلامة قواته وأمنها فى المقام الأول ، فقد كان وضعها الأول خطيرا بالنسبة لها .. لو أن الفرصة سنحت لرستم بمهاجمتها .. وهو بانسحابه يكون قد تجنب اطالة خطوط

مواصلاته مع قاعدته التى يعتمد أساسا عليها وتجنب اطالة المسافة بينه وبين المدد الذى كان فى الطريق اليه وهو بابتعاده عن ملاقاة عدوه كان يسعى الى اكمال حشـــده حتى يستطيع أن يخوض المعركة فى عدد يتناسب مع عدد عدوه .

وخلال القتال العنيف فى موقعة الجسر شاهد المثنى ما لحق بقومه من النكبات فتناول اللواء وأمر عروة بن مسعود بشد الجسر « انطلق الى الجسر فقف عليه وحل بين العجم وبينه » واصلاح الجسر وشده ووقوف عروة عليه يحول بينه وبين العجم ومهاجمة المثنى للفرس ومعه جماعة من الفرسان خففت حـــدة الهجوم الفارسى على القوات العربية التى حلت بها هزيمة مرة ومكنت العرب من عبور الجسر .. وهذه الاجراءات كلها كانت تهدف الى انقاذ العرب من القتل بسيوف الفرس أو من الغرق فى الفرات .. وهذا يعنى أن المثنى بهذه الاجراءات كان ينشـــد سلامة العرب وأمنهم .

وقبل البويب كانت قوات الفرس تتقدم ولها صوت وضوضاء وتنبه المثنى الى خطورة ذلك على الجيش المتقدم ، فهو يؤمن بالمفاجأة ويؤمن بسلامة قواته ولهذا يعمل جاهدا على ألا تقع قواته فى الخطأ الذى وقع فيه أعداؤه فيصدر أوامره لجنـــده « الزموا الصمت » .

وما أن فرغ المثنى من البويب حتى أسرع بارســـال قواته لاخضاع البلاد التى حولها حتى تستقر قواته وتأمن فى مواقعها فبعث جريرا الى نيسان وهلالا الى دستميسان وعـــزز مواقعه

العسكرية بعصمه الضبى والكلح الضبى وعرفجة بن هرثمة ، وبهذا التعزيز لمواقع قواته يكون قد اتخذ خطوات ايجابية فعالة لضمان أمن قواته وسلامتها .

وفى خلال تقدمه الى سوق بغداد حرص على أن تبقى جنده فى مأمن حين أمرها بالمبيت فعين الدوريات لتحرس المعسكر ليلا وأمر أفرادها بالانتباه واليقظة .

وكان العرب يؤمنون بأهمية **الحصار** الذى يطلق عليه فى حروب العصر الحديث التطويق والحصار هو وسيلة سريعة سهلة للقضاء على العدو ، فتطويق العدو وحصاره من شأنه آن يجبره على التسليم لأن القوة المحاصرة تحس أنها قد أصبحت فى وضع ذليل لا يمكنها من العمل .

وأدرك المثنى أهمية الحصار وعرف قيمته وبالرغم من أنه لم يستخدمه كثيرا فى معاركه لأن ظروف هذه المعارك لم تسمح بذلك وكان أول استخدامه للحصار أثناء مطاردته لقوات الفرس بعد الانتصار عليها فى الحفير فقد ووجه المثنى خلال مطاردته بحصن المرأة فأمر بحصاره وعين أخاه المعنى قائدا لقوة الحصار ، ثم تابع تقدمه فقوبل بحصن الرجل فحاصره وظل على حصاره حتى فتحه عنوة وغنم ما فيه ، ولقد ظل حصن المرأة محاصرا فترة طويلة فلما علمت المرأة — كما روى الطبرى — بسقوط حصن الرجل استسلمت .

ويعد موقعة الجسر خرج جابان ومعه مردانشاه لملاقاة ذى الحاجب والانضمام اليه ضد المسلمين فلما علم بذلك المثنى

استخلف على الناس عاصم بن عمر التميمى والقعقاع وخرج يريد القائدين ليمنعهما من الاتصال بذى الحاجب وعند أليس الصغرى التقى بهما فأمر بحصارهما وبعد أن تم الحصار لم يجد القائدان بدا من التسليم فأسرهما المثنى .

ومن ألزم واجبات القيادة أن يحرص القائد على توفير شئون الاعاشة خلال المعارك والجيش الذى لا تتوفر له هـذه الشئون يكون فى وضع حرج لا يستطيع أن يواصل الحرب ولهذا أثر عن نابليون قوله « ان الجيوش تسير على بطونها » .

ولقد بذل المثنى جهده لكى يوفر لجنده ما هم فى حاجة اليه حتى يستطيعوا مواجهة عدوهم فى قوة وجلد ، وموقعة البويب تشهد له بذلك فالموقعة وقعت فى رمضان وكان الجنود صائمين وأدرك المثنى أن الصوم قد يقلل القدرة على القتال والصـمود فأمر جيشه بالافطار حتى يقوى على عدوه .

ومما لا شك فيه أن غارات المثنى المتعددة على سوق الخنافس وسوق بغداد وصفين وتكريت كانت تهدف الى وضع اليد على المغانم الكثيرة التى تشتهر بها هذه المناطق .. هذه المغانم كانت توزع على الجنود فيأخذون نصيبهم العادل منها .

وقبل الغارة على سوق بغداد طلب المثنى من المرزبان أن يقدم لجنده العلف والطعام فقدمه لهم وقبل أن يبدأ رجـال المثنى الهجوم قال لهم « أيها الناس أطعموا وتوضأوا وتهيأوا » ، فعلف الناس خيولهم وتناولوا طعامهم وأصبحوا فى حالة نفسية طيبة مهيئين لشن الغارة .

ومن الشائع فى تاريخ الحروب أن الجيش الذى ينتصر على عدوه يسعى الى تأكيد هذا النصر بالقضاء قضاء مبرما على قوات عدوه ولهذا يهتم القادة باصدار الأوامر عقب انتهاء المعـركة بمطاردة العدو واللحاق به حتى لا تسنح أمامه فرصة اعادة تنظيم قواته والعودة من جديد للقتال فيكون شوكة فى جنب الجيش المنتصر يجب ازالتها بعملية أخرى .

والجيش المنهزم الذى يفر من أرض المعركة يكون عادة فى حالة معنوية سـيئة ، فاللحاق به ومطاردته تؤديان الى انهياره انهيارا تاما فلا يستطيع بعدها تنظيم نفسه أو العودة الى القتال .

ومن هنا برزت قيمة المطاردة وأحس المثنى بأهميتها فاستغلها استغلالا بعيدا فى حروبه .

فحين هرب جنود هرمز من الحفير بعد انهزامهم بها لاحقهم المثنى وطاردهم واستولى خلال مطاردته لهم على حصنى المرأة والرجل . وحين هرب الفرس من بابل بعد انهزامهم تبعهم المثنى الى المدائن وصار يقتلهم فى الطريق .

وحين علم المثنى بخـروج جابان ومرادنشاه للانضمام لذى الحاجب خرج وراءهما وظل يلاحقهما حتى أسرهما .

ولعل القارىء يلمس خلال هـذه الدراسة لحروب المثنى ان المتعمق فى دراسة حـروب المثنى يلمس حقيقة هامة وهى أنه كان يعتمـد فى حروبه على **الكيف دون الكم** أى يعتمد على امكانيات الرجال وقدراتهم ومشاعرهم ومعنوياتهم دون الاعتماد على عددهم أو كثرتهم .. ومن عجب أن الاعتماد على الكيف فى

الحرب أصبح الأساس الأول لكل المعارك والحروب ، فقد أهمل العسكريون نظرية الكم لأنهم وجدوا أن الكثرة العددية لا تضمن النصر وان السلاح فى يد ضعيفة لا قيمة له وان القلب الخالى من الايمان لا يصمد فى معركة ، وان النفس الضعيفة الخائفة لا تجسر على طول المقام فى الميدان .

ولقد آمن المثنى بنظرية الكيف — برغم تقدم عصره — ايمانا بعيد المدى وكان بذلك سباقا ، فقد أدرك أن القدرة على القتال ومواجهة الأعداء تتوقف على ما فى الرجال من بسالة وحماس وجلد ومثابرة وعزم ونظام واحترام وهمة وارادة وتضحية وانكار للذات ودراية ومعرفة وخبرة وكفاءة .

ولقد اهتم المثنى اهتماما بالغا بنفسية رجاله حتى أصبحوا قادرين على مواجهة الأحداث بما فيها من مخاطر قادرين على خوض المعارك والعيش فى أهوالها دون أن تهتز أيديهم وهى تحمل سيوفهم أو ترتعد قلوبهم وهم يتعرضون لمفاجآت المعركة وما أكثرها .

ان قوات المثنى كانت على درجة عالية من المعنويات .. روحها متوثبة .. راغبة فى القتال .. مشتاقة اليه .. مقدمة عليه .. ولعل هذا هو سر النجاح الكبير الذى أحرزته قواته فى غالبية معاركها فقد كان يداعبهم وهم يقاتلون أحد أملين عظيمين .. نصر حاسم يحفظ للاسلام والمسلمين الهيبة والتقدير أو موت واستشهاد فى سبيل الله والدين .. يقول المثنى لرجاله حين سمعهم يرددون فى خوف

واضطراب وقلق « ما أسرع القوم فى طلبنا » ، « لو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التماس الأجر ورجاء النصر » .

ان المثنى يقول للمسلمين « لا يعظمن عليكم هـذا الوجه (يقصد الفرس) فقد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على شقى السواد وشاطرناهم واجترأ من قبلنا ولها ان شاء الله ما بعدها » . فتثير كلماته مشـاعر الناس فيقوم أحدهم ويقول « انما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، وانى قد وهبت نفسى لله » . وتلتهب حماسة النـاس وترتفع روحهم فيتقـدمون للتطـوع حتى يبلغ عددهم خمسة آلاف .

والمثنى فى البويب يبعث الى بنى عجل — وقد رأى خللا فى فى صفوفهم — قائلا « ان الأمير يقرئكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم » فتثور حميتهم وتزداد حماستهم ويقـولون فى صوت كالرعد « نعم » ، ويقتل مسعود أخو المثنى خلال القتال فلا يهز موته قلب أخيه ، وانما يستمر فى قيادة المعركة وهـو يخاطب الناس « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى ، فان مصارع خياركم هكذا » ، وما أبلغ هذه الكلمة فى موقف حرب عصيب ، وما أوقع تأثيرها فى قلوب المقاتلين ، وكم شدت معنوياتهم وحرضتهم على عدوهم .

وها هو ذا المثنى فى مقدمة جنده يدعو لهم بالنصر ويرسل اليهم من يشجعهم ويحميهم ويقول لهم « عاداتكم فى أمثالكم انصروا الله ينصركم » .

وفى موقف الشدة يتجه المثنى الى ربه الذى وعد المؤمنين النصر فيذكر جنده بوعد الله ويخاطب ايمانهم قائلا « ثقوا بالله واحسنوا به الظن فقد نصركم فى مواطن كثيرة وهم أكثر منكم وأعز » ، و « أيها الناس احمدوا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان وانظروا فى الأمور وقدروها ثم تكلموا » .

ختـــام

أما بعد ...

فهذا هو كتابى عن المثنى بن حارثة وغاية ما أرجو أن أكون قد وفقت فى اعداده ليظهر بصورة تتناسب مع شخصية المثنى كرجل دين وحرب وكمجاهد من المجاهدين الأبطال الذين خدموا الدين بهمة تذكر فتشكر ، وخدموا الحرب بقدر جليل لا ينكر .

ويشهد الله اننى قد بذلت غاية ما وسعته طاقتى وما قدر عليه جهدى رغبة فى أن أقدم للمكتبة العربية وللباحثين والدارسين ورجال الحرب بحثا مفيدا .

والله الموفق الى سبيل الرشاد وخير العباد .

محمد فرج

المراجـــع

(رتبت المراجع هنا حسب الحروف الأبجدية)

أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة رفيق العظم

الاستيعاب .. .. ابن عبد البر

البيان والتبيين .. .. الجاحظ

السيرة العمرية .. .. ابن الجوزى

الصديق أبو بكر .. .. محمد حسين هيكل

العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول .. محمد فرج

العرب قبل الاسلام .. .. جرجى زيدان

الفاروق عمر .. .. محمد حسين هيكل

الفتوحات الاسلامية .. .. أحمد بن دحلان

بلوغ الارب .. .. الآلوسى

تاريخ الأمم والملوك .. .. الطبرى

تاريخ الأمة العربية .. .. محمد أسعد أطلس

تاريخ العرب القدامى .. .. محمد فخر الدين

تاريخ الكامل .. .. ابن الأثير

تاريخ اليعقوبى .. .. أحمد بن يعقوب

تجارب الأمم .. .. ابن مسكويه

جبابرة حرب .. .. محمد فرج

خالد بن الوليد .. .. صادق عرجون
خلفاء محمد .. .. عمر أبى النصر
رسائل نادى المثنى .. .. عبد الستار فرغولى
سيف الله خالد .. .. محمد فرج
سيرة ابن هشام .. .. ابن هشام
فتوح الاسلام .. .. الواقدى
فتوح البلدان .. .. البلاذرى
مروج الذهب ومعادن الجوهر .. .. .. المسعودى
معجم البلدان .. .. ياقوت الحموى

فهرس

الباب الأول
بيئـــة المثنى

صفحة

الباب الثانى

بنو شيبان بين الاسلام والردة

الباب الثالث

أرض السواد والحيرة

الباب الرابع
المثنى فى العراق

صفحة

صفحة

الباب الخامس
غارات المثنى

صفحة

البــاب الســادس

المثنى القـــائد

صفحة

للمؤلف

كتب فى التاريخ :

جبابرة حرب .... الناشر دار الفكر العربى

محمد المحارب ...... (الطبعة الأولى والثالثة) الناشر دار الفكر العربى

(الطبعة الثانية) الناشر شركة التوزيع المصرية

العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول ...... الناشر دار الفكر العربى

سيف الله خالد .... الناشر دار الفكر العربى

عمرو بن العاص .... الناشر دار الفكر العربى

السلام والحرب فى الاسلام .... الناشر دار الفكر العربى

أحاديث فى الحرب .... الناشر سلسلة اخترنا للجندى

السلام فى الاسلام .... الناشر سلسلة دراسات اسلامية

المثنى بن حارثة الشيبانى .... الناشر سلسلة أعلام العرب

كتب فى السياسة :

نهاية الطاغية .... الناشر دار النداء

قصة الجلاء ...... (الطبعة الأولى) الناشر ادارة الثقافة بالجيش بتكليف خاص

(الطبعة الثانية) الناشر دار الفكر العربى

الاشاعات ...... الكتاب الفائز فى المسابقة الثقافية بين ضباط الجيش الناشر ادارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى

النضال الشعبى فى سوريا .... الناشر سلسلة كتب قومية

العدوان الثلاثى ...... (الكتاب الفائز فى مسابقة مصلحة الاستعلامات) الناشر سلسلة كتب قومية

النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية ..... الناشر سلسلة كتب ثقافية

الثورة المصرية واثرها فى سياسة الشرق الأوسط الناشر ادارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى

التطورالسياسى فى الهند والصين ــــ ــــ الناشر سلسلة كتب سياسية

النضال الشعبى ضد حملة فريزر ــــ ــــ الناشر سلسلة كتب قومية

القوات المسلحة فى ضوء الميثاق ــــ ــــ الناشر سلسلة اخترنا للجندى

يمنيات ــــ ــــ ــــ ــــ ..... الناشر سلسلة اخترنا للجندى

على الطريق الى وحدة الهدف ــــ ..... الناشر دار الفكر العربى

كتب فى القصة :

هذه هى الحياة ــــ ــــ ــــ ..... الناشر دار النشر الحديثة

قلوب محطمة ــــ ــــ ــــ ..... الناشر دار الفكر العربى

بطولة فدائية ــــ .... الناشر دار الفكر العربى

الناس سواسية .... الناشر دار الفكر العربى

أعلام العرب

الكتاب القادم

مُظَفَّرُ الدِّينِ كُوكُبُورِى
أمير إربل

تأليف
عبد القادر أحمد طليمات

يصدر فى ٧ أغسطس ١٩٦٤

مطبعة مصر